القسم... اللغة العربية.....

الكلية... اللغات.... .....

الجامعة... صلاح الدين.....

المادة... التعبير القرآني.....

كراسة المادة – للمرحلة الثانية.....

اسم التدريسي :د.شاخوان عمر قادر.....

السنة الدراسية: ٢٠٢٢م-٢٠٢٣م- الكورس الثاني

مدخل الى تعريف التعبير القرآني

- الْعَيْنُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النُّفُوذِ وَالْمُضِيِّ فِي الشَّيْءِ.
- تعريف التعبير :هو القالب الذي يصب فيه الإنسان أفكاره بلغة سليمة، وتصوير جميل، وهو الغاية من تعليم اللغة.
- ففروع اللغة كلها وسائل للتعبير الصحيح بنوعيه الشفهي والتحريري، وهو من دلائل ثقافة الطالب وقدرته على التعبير عن أفكاره بعبارة سليمة بليغة، ولذلك كان التعبير من أهم ما يجب أن يهتم به معلم اللغة.

أنواع التعبير

يعرف التعبير بأن الفن الذي يستطيع من خلاله الإنسان إظهار أفكاره ، وعواطفه بلغة سليمة ، وأساليب رائعة ، ومن خلال التعبير يستطيع الفرد التواصل بينه وبين المجتمع ، ويجب على الفرد أن الشخص أن يحسن اختيار المفردات التي سيكتبها في موضوع التعبير :وللتعبير من حيث الأداء نوعين وهما:

- ١- التعبير الشفهي :وهو الأفكار التي يقوم الكاتب بالتعبير عنها ، ويمثل هذا النوع جانب التحدث في اللغة .
- ٢-التعبير الكتابي : وهو الألفاظ والعبارات التي يمكن للشخص من خلالها أن يعبر عن الأفكار ، يمثل هذا النوع الجانب المكتوب في اللغة.

وينقسم التعبير الشفهي والكتابي إلى نوعين وهما:

- ١- التعبير الوظيفي : ويطلق عليه اسم التعبير النفعي ، حيث يعبر عن المواقف الاجتماعية المختلفة والتي تصاف الإنسان خلال حياته ، حيث يشعر بأن الحياة هي من علمته التعبير وأعطته الخبرة فيه ، وتعد مجالات هذا النوع من التعبير واسعة للغاية ، كتقديم الإنسان لنفسه ،ومواقف المجاملة والاعتذار ، وسرد القصص والحكايات ، وتساعد هذه المهارات الشخص على إلقاء الخطب ، كما تزيد من قدرته على المناقشة

- .
- ٢-التعبير الإبداعي : ويدعى بالتعبير الإنشائي ، ويتميز هذا النوع من التعبير بالانفعال والعاطفة ، ومن خلاله يقوم الكاتب بعرض أفكاره ومشاعره بطريقته وأسلوبه الخاص ، حيث يقوم بانتقاء عباراته بدقة كبيرة ، بحيث تشد السامع والقارئ إلى الموضوع الذي يكتبه ، وتتعدد مجالات هذا النوع من التعبير ومنها أدب الأطفال والذي يتضمن الحكايات العالمية ، والمسرح ، والشعر وغيرها

"مفهوم التعبير القرآني"

إن التعبير القرآن تعبير فني مقصود، كل لفظة بل كل حرف فيه وُضِعَ وضعاً فنياً مقصوداً، وليس من أجل آية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله.

لا خلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد في عُلُوِّهِ وسُمُوِّهِ وأنه أعلى كلام وأرفعه، وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تَحدَّاهم أكثر من مرة.

لقد تحدى القرآنُ العرب ثم جميع الخلق بأن يأتوا بمثله ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .فقد تحداهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى فقال:"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَاهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ"هود14-13

فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم بأن يأتوا بسورةٍ من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا فانقطعوا أيضاً وقامت الحجة عليهم، قال تعالى:"وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" البقرة.24-23

وأَكَّد التحدي بقوله:"قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً "الإسراء88

دعا القرآن العرب إلى أن يأتوا بسورة من مثله ويشمل هذا التحدي قِصارَ السور كما يشمل طوالها فهو تَحدَّاهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر ولإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها، ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن.

ومن الثابت أنّ القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه ولذلك سعوا إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس .سعوا إلى أن لا يصل إلى الأُذن ،لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُحْدِثُ في النفس دَويّاً هائلاً وهزَّة عنيفة وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم هذا الأسلوب فقال :"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ "فصلت ٢٦....وكان صناديد قريش وأعتاهم محاربةً للرّسول –صلى الله عليه وسلّم-وأشدهم كيداً له ونيلاً منه لا يملكون أنفسهم عن سماعه، فقد كان كل من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق يأخذ نفسه خِلْسةً لسماعه في الليل والرسول –صلى الله عليه وسلّم-في بيته لا يعلم بمكانهم ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض :لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في أنفسهم شيئاً، ثم انصرفوا .حتّى إذا كنت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا .حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض :لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .وقد أخبر الله نبيه بهذا الأمر فقال :"نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً "الإسراء47

وما قول الوليد بن المغيرة بِسِرٍّ، فقد اجتمع إليه نفر من قريش ليُجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس في الموسم فقال بعضهم :شاعر، وقال بعضهم : كاهن، وقال بعضهم :ساحر، وقال بعضهم :مجنون .فكان يرى هذه الأقوال ويُفَنِّدها ثم قال:[والله إنَّ لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يُعلى عليه].

المبحث الاوّل

البُنية في التعبير القرآني

يستعمل القرآن الكريم بُنيةَ الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال :

١ -**استعمال الفعل والاسم** :فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على الثبوت، تقول :هو يتعلم وهو متعلم .فيتعلم يدل على الحدوث والتجدد أي :هو آخذٌ في سبيل التعلم بخلاف متعلم فإنه يدل على أنَّ الأمر تم وثبت وأن الصفة تمكنت في صاحبها .

ومن هذا الضرب قوله تعالى:" إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً"البقرة :٣٠ . فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكأنه تمّ واستقر وثبت .

ومثله قوله تعالى لنوح -عليه السلام-:" وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ " هود :٣٧ ...فلم يقل :سأغرقهم أو إنهم سيغرقون .ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي: كأن الأمر استقر وانتهى .

ومثله قوله تعالى في قوم لوط -عليه السلام-"وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى قالوا إِنَّا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية"العنكبوت :٣١ ولم يقولوا :سنُهلك .فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات أي :كأن الأمر انتهى وثبت .

فخلاصة الأمر: أن الفعل يدل على الحدث والتجدد والاسم يدل على الثبوت والاستقرار، وقد استعمل القرآن الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الفن والدقة .

ومثل ذلك قوله تعالى: "وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" الأنفال :٣٣،

فقد جاء في صدر الآية بالفعل" ليعذبهم "وجاء بعده بالاسم" مُعَذِّبهم "وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرّسول-صلى الله عليه وسلّم- بينهم فإنّه– أي: العذاب - موقوتٌ ببقائه بينهم .فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية.

ومن لطيف الاستعمال الفنّي للفعل والاسم قوله تعالى"الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً "غافر :٦١ .
فاستعمل مع الليل الفعلَ" لستكنوا فيه "ومع النهار الاسم" مبصراً" ولم يسوِّ بينهما فلم يقل :ساكناً ومبصراً ولا لتسكنوا فيه، ولتبصروا فيه، مع أن الاستعمال الحقيقي هو : لتبصروا فيه ، وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية، فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال" هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ" يونس :٦٧ ، ولو قال:" هو الذي جعل لكم الليل ساكناً "لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية ولكانت"لكم "هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء بـ"لكم "وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا .وعلاوة على ذلك فإنه لو قال" :ساكناً "لم يكن التعبير مجازياً ،لأنّ الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال :ليل ساكن ، فتحويله إلى الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنيّة.
أمّا الجزء الثاني من الآية فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلي فقال" والنهار مُبْصِراً"غافر :٦١.... وذلك أن النهار لا يُبصِر بل يُبصَر من فيه :فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي ودلّ على المقصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً .ولو قال" لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه " لفات التعبير الفني الجميل تعبير المجاز .ولو قال" ساكناً ومبصراً "لفاتت الدلالة على النعمة التي هي المقصد الأول من هذه الآية، ولو قال" ساكناً ولتبصروا فيه "لفات المجاز في التعبيرين.
ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة الكافرون وهو قوله تعالى"قُلْ ياأيها الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ "الكافرون :١-٦،فأنت ترى أن الرّسول– صلى الله عليه وسلّم -نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين :الفعلية والاسمية" لا أعبد ما تعبدون- ولا أنا عابد ما عبدتم "وبالفعلين :المضارع والماضي" تعبدون "و "عبدتم "ونفى عن الكافرين العبادة بصيغة واحدة مرتين هي الصيغة الاسمية": ولا أنتم عابدون ما أعبد"، ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال .إذ لو اقتصر على الفعل لقيل :إن هذا أمر حادث قد يزول .ولو اقتصر على الاسم لقيل :صحيح أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناه أنه مستمر على هذا الوصف لا يفارقه، فإن الوصف قد يفارق صاحبه أحياناً، بل معناه أن هذا وَصْفُه في غالبِ أحواله، فالحليم قد يغضب ويعاقب، والجواد قد يأتيه وقت لا يجود فيه إذ هو ليس في حالة جُودٍ مستمر لا ينقطع، والرحيم قد يأتيه وقت

يغضب فلا يرحم .ولئلا يُظَنَّ ذاك في الرسول-صلى الله عليه وسلّم- أعلن براءته من معبوداتهم بالصيغتين الفعلية والاسمية :الصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والصيغة الاسمية الدالة على الثبات ليعلم براءته منها في كل حالة .ثم إنه استغرق الزمن الماضي والحال والاستقبال باستعماله الفعل الماضي والمضارع، في حين نفاه عن الكافرين بالصيغة الاسمية فقط .فإصراره هو على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم والنفي عنه أَدومُ وأبقى من النفي عنهم.

ومن بدائع الفنّ في هذا الباب قوله تعالى:"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ "الذاريات :٢٥، ففرق الله سبحانه وتعالى بين السلامين فجعل الأول بالنصب والثاني بالرفع ولم يسوِّ بينهما، وذلك لأن قوله" سلاماً "بالنصب تقديره :نُسَلِّمُ سلاماً أي بتقديرِ فِعْلٍ .وقوله"سلام "تقديره :سلام عليكم، أي :بتقدير اسمية الجملة .والاسم أثبت وأقوى من الفعل فدل على أن إبراهيم عليه السلام حَيَّا الملائكة بخير من تحيتهم .

وجاء في التفسير الكبير: [أنّ إبراهيم -عليه السلام- أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار]

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب- عليه السلام:"وَجَآءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ والله المستعان على مَا تَصِفُونَ "يوسف :١٨، فجاء بالصبر مرفوعاً أي :بتقدير الجملة الاسمية لأنه وَطَّنَ نفسه على الصبر الطويل الدائم الذي لا يعرف له نهاية والذي قد يستغرق ما بقي من عمره، ولم يقل:" فصبراً " بالنصب بتقدير الفعل أي :لأصبر صبراً، لأنه يدل على الصبر الحادث الذي يتغير لا الصبر الدائم الثابت .فَثَمَّةَ فَرْقٌ بين الاستعمالين والمعنيين .

قوله تعالى":وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ"الهمزة :١ ...فانظر كيف قال" ويل" بالرفع ولم يقل"ويلاً "بالنصب وذلك ومثله لأنه بالرفع جملة اسمية وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذاباً دائماً لا ينقطع أو دعا عليهم به .ولو قال" :ويلاً "بالنصب لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم .ثم انظر كيف قال في آخر السورة": إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ"الهمزة :٨-٩، فأخبر أن أبوابها مغلقة عليهم لا تنفتح إشارة إلى دوام العذاب وخلوده، وكيف ناسب ذلك أول السورة برفع الويل .فانظر هذا التنسيق الجميل في التعبير والمعنى بين المفتتح والختام ..

٢ -**الأبنية المتعددة :**وكذلك استعماله للأبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن ذلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعلٍ آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق

وأيسره وذلك نحو قوله تعالى": واذكر اسم رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً" المزمل :٨، فإنه جاء بالفعل" تبتّل "غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو" بتّل "وذلك أن مصدر تبتل هو" التبتُّل "فإن مصدر"تفعَّل "يكون على" التَّفَعُّل "كتعلّم تعلُّماً وتقدّم تقدّماً . وأما"التبتيل "فهو مصدر بَتَّلَ لا تَبتّل فإن" التفعيل "هو مصدر" فعّل "كعلّم تعليماً وعظّم تعظيماً .وكان المتوقَّع أن يقول": وتبتل إليه تبتلاً "غير أنه لم يقل ذاك .وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين مَعْنَيي التبتل والتبتيل، وذلك أن تبتّل على وزن تفعّل وتَفَعَّلَ : "يفيد التدرُّجَ والتكلف ، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة ولو جاء بمصدر الفعل "تبتّل "فقال":وتبتل إليه تبتُّلاً "لم يفد غير التدريج وكذلك لو قال"وبتّل نفسك إليه تبتيلا " لم يُفِدْ غيرَ التكثير .ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما فهو بدل أن يقول": وتبتَّلْ إليه تَبَتُّلاً وبَتِّلْ نفسَكَ إليه تبتيلاً"، جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آن واحد وهذا باب شريف جليل .

وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده وهو توجيه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى :احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى :ابدأ بالتدرج في العبادة وانته بالكثرة.

ومثله قوله تعالى":وَيُرِيدُ الشيطان أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً " النساء :٦٠، والقياس أن يقول :أن يُضلهم إضلالاً بعيداً" لأن مصدر أضلّ : الإضلال أما الضلال فهو مصدر ضلّ، قال تعالى" :فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً"النساء :١١٦، والمعنى أن يُضلهم فيضلّوا ضلالاً بعيداً، وقد جمع المعنيين :الإضلال والضلال في آن واحد .

والمعنى أن الشيطان يريد أن يُضلهم ثم يريد بعد ذلك أن يَضلّوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة وهم يُتِمُّونها .فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كل مذهب .يريد أن يطمئنوا إلى أنهم يقومون بمهمته هو .

ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر، فجمع بين المعنيين، والمعنيان مرادان والله أعلم .

وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى وذلك كقوله تعالى":الرّحمن الرّحيم "فإنّ الرّحمن على وزن فَعْلاَن ، والرّحيم على وزن فعيل فجمع بينهما، وذلك أن صيغة فعلان تدل على الصفات المتجددة، وذلك نحو :عطشان وجوعان وغضبان ونحوها، فإن العطش في :عطشان، ليس صفةً ثابتة بل يزولُ ويتحول، وكذلك جوعان

وغضبان، بخلاف فعيل فإنه يدل على الثبوت وذلك نحو :كريم وبخيل وطويل وجميل ،فإن هذه صفات ثابتة، فليس طويل مثل :عطشان في الوصف ولا قبيح مثل :جوعان .
ودلالة هذا البناء على الحدوث بارزة في لغتنا الدارجة تقول :هو ضعفان، إذا أردت الحدوث فإن أردت الثبوت قلت:هو ضعيف، وكذلك سمنان وسمين :ألا ترى أنك تقول لصاحبك :أنت ضعفان، فيرد عليك :أنا منذ نشأتي ضعيف .وتقول له :أراك طولان . فيقول :أنا طويل منذ الصغر .

ولو اقتصر على رحيم لظن أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجددها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك . والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال فمجمع بينهما حتى يعلمَ العبدُ أن صفته الثابتة هي الرحمة وأن رحمته مستمرة متجددة لا تنقطع، حتى لا يَستبدَّ به الوهمُ بأن رحمته تَعرضُ ثم تنقطع أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه سبحانه - فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه .

٣- **المفرد والجمع**: وقد يستعمل المفرد مرة والجمع مرة أخرى مع أن الموضعين يبدوان متشابهين فمن ذلك ، ومن ذلك قوله تعالى:"قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السمآء والأرض" الأنبياء :٤ . وقوله":قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض"الفرقان :٦ .

فقال في آية الأنبياء" :السماء..."وفي آية الفرقان" :السماوات ...."وسبب ذلك أن القول عام يشمل السر والجهر فهو أعم من السر ألا ترى أنك تقول :قلت في نفسي كذا وكذا؟ قال تعالى":وَيَقُولُونَ في أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المصير" المجادلة :٨ .

جاء في الكشاف: [أنّ القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نحوٍ أهم] .

و"السماء" هنا أعم من "السماوات" وذلك أن السماء في القرآن تستعمل على معنيين فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى":وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بمصابيح"الملك: ٥ ، وقوله" :وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ" الحجر :١٤-١٥،

وإما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره، قال تعالى":يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً"نوح :١١، والسماء هنا بمعنى المطر .
وقال":أَنَزَلَ مِنَ السمآء مَآءً"الرعد :١٧، والسماء هنا بمعى السحاب .

وقال":فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء" الأنعام :١٢٥، والسماء هنا بمعنى الجو .
والمعنى أن الضالّ عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعَّد في الجو لأن المرتفعَ في الجو يضيقُ صدره لاختلال الضغط كما هو معلوم .وهذا إعجاز علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العملية قبل اختراع المنطادات والطائرات بِدُهور .
وقال:" مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله فِي الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ" الحج :١٥، والسماء هنا بمعنى السقف، أي :مَنْ كان يظن أن لن ينصر الله محمداً –صلى الله عليه وسلّم-فليمدد حبلاً إلى سقف بيته ثم ليخنق نفسه به لأن محمداً منتصرٌ لا محالة .وهذا إعجاز آخر لأنه إخبار عن المستقبل وقد تحقق ذاك .ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من السماوات لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع .
ألا ترى كيف قال تعالى":وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"آل عمران :١٣٣، وقال": سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم"الحديد :٢١، فلما جاء بالسماوات قال" :عرضها السماوات والأرض" ، ولما جاء بالسماء التي هي أعم من السماوات قال" :عرضها كعرض السماء والأرض "فجاء بكاف التشبيه وذلك لأن السماء أعرض بكثير من السماوات .
ثم ألا ترى كيف قال الله تعالى في كُلٍّ من الآيتين، ففي آية السماوات قال" :أعدت للمتقين "وفي آية السماء قال:" أعدت للذين آمنوا بالله ورسله "وذلك لأنّ المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسله، لأنّ المتقي لا يكون إلا مؤمناً أما المؤمن بالله ورسله فقد لا يكون متقياً، فالمؤمنون بالله ورسله أكثر من المتقين فجاء للطبقة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسله بذكر صفتها الواسعة" كعرض السماء"وجاء مع الطبقة الخاصة الذين هم أقل ممن قَبلَهم وهم المتقون بلفظ"السماوات" التي هي أهل سعة من السماء فناسب بين السعة والعدد .
ثم انظر كيف زاد في آية الحديد قوله:" ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم" الحديد :٢١ .وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسَّعَ دائرة الداخلين في الجنة، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقصرها على المتقين منهم، ذكر هذا الفضل في آية الحديد .

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال:"سابقوا" وفي الآية الأخرى قال:"سارعوا "،وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المُسَارعة .
فانظر كيف ذكر في آية الحديد المسابقة وهي تشمل المسارعة وزيادة، وذكر السماء وهي تمشل السماوات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله وهم يشملون المتقين وزيادة . وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة .فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فَجَلَّتْ حِكمةُ الله .
ومن ذلك قوله تعالى:"وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وذلك الفوز العظيم * وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ" النساء :١٣-١٤،
فقال في أصحاب الجنة:"خالدين فيها "بالجمع ، وفي أصحاب النار:"خالداً فيها "بالإفراد ....وقالوا :إن الحكمة في جمع الوصف أولاً للإشعار بالاجتماع المُسْتلزمِ لزيادة الأنس والسعادة عند أهل الجنة فإن الوحدة لا تُطاق، وإفراده لزيادة التعذيب عند أهل النار فإنه تعذيب بالنار والوحدة جاء في حاشية يس على التصريح في هاتين الآيتين" .ولعل الحكمة في جمع الوصف أولاً بذلك الاعتبار وإفراده ثانياً باعتبار اللفظ، ما في صيغة الجمع من الإشعار بالاجتماع المستلزم للتأنس زيادة في النعيم وما في الإفراد من الإشعار بالوحدة المستلزم للوحدة زيادة في التعذيب كما ذكره أبو السعود :[وقيل :إنه لما ذكر في الأول جنات متعددة لا جنة واحدة قال:يدخله والضمير المنصوب في يدخله وإن كان مجموعاً في المعنى فهو في اللفظ مفرد من حيث هو مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة فجاء" خالدين "لرفع هذا الإبهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية وإن كان المعنى صحيحاً .أمّا الآية الثانية فذكر فيها ناراً فناسبها الإفراد في"خالداً "].
ومن ذلك قوله تعالى ":فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ"الأعراف :٧٨ وقوله":وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ "هود :٦٧ .
وقوله:"وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ"هود :٩٤، فأنت ترى حيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة الشديدة وَحَّدَ الدار، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أمّا الصيحة فإنما يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة فلذلك وحّد مع الرجفة وجمع مع الصيحة .

وقريب من ذا قوله تعالى:"فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ"الشعراء :١٠٠-١٠١ فجمع الشافع ووحَّدَ الصديق فإن قلت :لِمَ جمع الشافع ووحد الصديق؟ قلت :لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء وبخاصة أنه وصف الصديق بأنه حميم فإن ذلك أندر .
وقريب من ذا قوله تعالى: "ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولاكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ" الحج :١-٢، فجمع أولاً فقال" ترونها "ثم وَحَّد فقال" وترى الناس" جاء في الكشاف: فإن قلت :لِمَ قيل أولاً" ترون "، ثم قيل " ترى "على الإفراد؟ قلت :لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها، وهي معلقة أخيراً يكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم وهذا باب واسع نكتفي منه بهذا القدر.

المبحث الثاني
التقديم والتأخير

المفهوم الفعلي من حيث الدلالة اللغوية للتقديم والتأخير أنه إذا بدأنا بكلمة سابقة على غيرها فقد قدمناها في الكلام .والتقديم نوعان أو ثلاثة:

١.تقديم اللفظ على عامله نحو قوله تعالى" إياك نعبد وإياك نستعين "وقوله تعالى" وربك فكبّر "وقولنا :زيداً أكل أو زيداً أكرمت .وبمحمد اقتديت.

٢.تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل وذلك نحو قوله تعالى" وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ "البقرة ....وقوله" وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ "المائدة.

أوّلاً :**تقديم اللفظ على عامله**:

ومن هذا الباب تقديم المفعول به على فعله وتقديم الحال على فعله وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما وتقديم الخبر على المبتدأ ونحو ذلك .وهذا التقديم في الغالب يفيد الإختصاص فقولك:[أنجدت خالداً] يفيد أنك أنجدت خالداً ولا يفيد أنك خصصت خالداً بالنجاة بل يجوز أنك أنجدت غيره أو لم تنجد أحداً معه .فإذا قلت :خالداً أنجدت أفاد ذلك أنك خصصت خالداً بالنجدة وأنك لم تنجد أحداً آخر.

ومثل هذا التقديم في القرآن كثير :فمن ذلك قوله تعالى" إياك نعبد وإياك نستعين "في سورة الفاتحة، فقد قدّم المفعول به " إياك " على فعل العبادة وعلى فعل الإستعانة دون فعل الهداية قلم يقل إيانا اهد كما قال في الأوليين، وسبب ذلك أن العبادة والإستعانة مختصتان بالله تعالى فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان به .وهذا نظير قوله تعالى" بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ "66" الزمر "وقوله" وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"172" البقرة "فقدم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى.

*ومثل التقديم على فعل الإستعانة قوله تعالى" وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ "12" ابراهيم "....وقوله" على الله توكلنا ربنا"الأعراف.... وقوله" عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " "88"هود .....فقدم الجار والمجرور للدلالة على الإختصاص وذلك لأن التوكّل لا يكون إلا على الله وحده والإنابة ليست إلا إليه وحده.

ولم يقدم مفعول الهداية على فعله قلم يقل :إيانا اهد كما قال" إياك نعبد "وذلك لأن طلب الهداية لا يصح فيه الإختصاص إذ لا يصح أن تقول اللهم اهدني وحدي ولا تهد أحداً

غيري أو خُصني بالهداية من دون الناس وهو كما تقول اللهم ارزقني واشفني وعافني . فأنت تسأل لنفسك ذلك ولم تسأله أن يخصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية فلا يرزق أحداً غيرك ولا يشفيه ولا يعافيه.

**ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى" قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "29" الملك ...فقدم الفعل آمنا على الجار والمجرور "به "وأخّر توكلنا عن الجار والمجرور" عليه "وذلك لأن الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الأخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يجوز إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين قدّم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه.

**ومن ذلك أيضاً قوله تعالى" أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ "53" الشورى، لأن المعنى هو أن الله مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره.

ونحو قوله تعالى" إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ "25" ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ "26" الغاشية... . فإن الإياب لا يكون إلا إلى الله وهو نظير قوله تعالى" إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآَبِ "36" الرعد... وقوله" وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى "32" القيامة..... فالمساق إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي كما ذهب بعضهم بل هو لقصد الإختصاص نظير، قوله تعالى" إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا "4" يونس..... وقوله" وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ "123" هود..... وقوله" وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ "93" الأنبياء وغير ذلك من الآيات.

**ومن هذا الباب قوله تعالى" إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ "47" فصلت..... فعلم الساعة مختص بالله وحده لا يعلمه أحد غيره ونحوه قوله تعالى" إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ"34" لقمان..... فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ وهو نظير الآية السابقة

**ونحو قوله" وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ "59" الأنعام..... فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ" مفاتح الغيب "وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب ألا ترى كيف أكد ذلك الإختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القصر فقال :لا يعلمها إلا هو؟ وقد يكون التقديم من هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء والتعظيم والتحقير وغير ذلك من الأغراض، إلا أن الأكثر فيه أنه يفيد الإختصاص .

ومن التقديم الذي لا يفيد الإختصاص قوله تعالى" :وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ "84" الأنعام.... فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نوحاً وإنما هو من باب المدح والثناء .

ونحو قوله" فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ "9" وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ "10" الضحى "إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم ونهر غير السائل وإنما هو من باب التوجيه فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

ثانياً :**تقديم اللفظ وتأخيره على غير العامل**:

إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم :إن التقديم إنما يكون للعناية والإهتمام .فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في الكلام .والعناية باللفظة لا تكون من حيث أنها لفظة معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال .ولذا كان عليك أن تقدم كلمة في موضع ثم تؤخرها في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذاك .والقرآن أعلى مثل في ذلك فإنا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام .فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر كل ذلك بحسب ما يقتضيه القول وسياق التعبير.

فإذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الإكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلم للعناية بها والإهتمام دون تبيين مواطن هذه العناية وسبب هذا التقديم.

فإذا قيل لك مثلاً :لماذا قدم السماء على الأرض هنا؟ قلت لأن الإهتمام بالسماء أكبر ثم إذا قيل لك ولماذا قدم الأرض على السماء في هذه الآية قلت لأن الإهتمام بالأرض هنا أكبر، فإذا قيل ولماذا كان الإهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الإهتمام بالأرض هنا أكبر؟

وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الإختلاف بين الموطنين بحيث تبين أنه لا يصح أو لا يحسن تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء أو تقديم السماء على الأرض فيما قدمت فيه الأرض بياناً شافياً .وكذلك بقية المواطن الأخرى .أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والإهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام .والإكتفاء بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف إذ كل واحد يقول لك :إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق.

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلم وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن كما في غيره الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي

تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب .ولم يكتف القرآن الكريم الذي وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله .فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.

إن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك وكذلك مرتعا فيه سياق الكلام والإتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة .وسنوضح هذا القول المجمل ببيان شاف.

إن القرآن كما ذكرت يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام مثلاً متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ "56"الذاريات.... فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى" وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ "27" الحجر.... فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم.

**ونحو قوله تعالى" لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ "255" البقرة....، لأن السِّنة وهي النعاس تسبق النوم فبدأ بالسنة ثم النوم.

**ومن ذلك تقديم عاد على ثمود قال تعالى" وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ "38"العنكبوت.... فإن عاداً أسبق من ثمود.

**وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور قال تعالى" وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ "33" الأنبياء "فقدم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود .وقال" يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ "44" النور..... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت .قال تعالى" وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ "1" الأنعام.... وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل.

قالوا :ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم حيث ورد في القرآن الكريم" وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "1" الحشر.... قالوا لأنه عزّ فحكم.

**ومنه تقديم القوة على العزة لأنه قوي فعزّ أي غلب بالقوة فالقوة أول قال تعالى" إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ "40" و "70" الحج.... وقال" وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا "25" الأحزاب....

وقد **<u>يكون التقديم بحسب الفضل والشرف</u> منه تقديم الله سبحانه في الذكر كقوله تعالى" وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ

وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا "69" النساء.... . فقدم الله على الرسول ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من يعدهم بحسب تفاضلهم .كما تدرج من الفئة القليلة إلى الكثرة فبدأ بالنبيين وهو أقل الخلق ثم الصدّيقين وهم أكثر ثم الشهداء ثم الصالحين فكل صنف أكثر من الذي قبله فهو تدرج من القلة إلى الكثرة ومن الأفضل إلى الفاضل ولا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قلّ صنفهم.

**ومن ذلك قوله تعالى" وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا "7" الأحزاب.... فبدأ بالرسول لأنه أفضلهم ** وجعلوا من ذلك تقديم السمع على البصر قال تعالى" وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ "11"الشورى..... و" إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ "20" غافر... وقال" إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ "1....وقوله "هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ "56" غافر "الإسراء..... وقال تعالى" إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا "2" الإنسان.... فقدم السمع على البصر .وقال" وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا "73" الفرقان..... فقدّم الصم وهم فاقدو السمع على العميان وهم فاقدو البصر .قالوا لأن السمع أفضل .قاولا والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يبعث نياً أصم ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب - عليه السلام - فإنه عمي لفقد ولده.

والظاهر أن السمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله .والأعمى يمكن تبليغه بها وتيسير استيعابه لها كالبصير غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى ولذا كان العميان علماء كبار بخلاف الصم .فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى.

ويمكن أن يكون تقديم السمع على البصر لسبب آخر عدا الأفضلية وهو أن مدى السمع أقل من مدى الرؤية فقدم ذا المدى الأقل متدرجاً من القصر إلى الطول في المدى ولذا حين قال موسى في فرعون" قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى "45" طه "قال الله تعالى" قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى "46" طه.....فقدم السمع لأنه يوحي بالقرب إذ الذي يسمعك يكون في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً وإن كان الله لا يند عن سمعه شيء.

وقد **<u>يكون التقديم بحسب الرتبة</u>** وذلك كقوله تعالى" فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ "8" وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ "9" وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ "10" هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ "11" مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ "12" القلم..... فإن الهمّاز هو العيّاب وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف

النميمة فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص .فبدأ بالهماز وهو الذي يعيب الناس وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو المشي بالنميمة ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين .وهذه مرتبة بعد في الإيذاء مما تقدمها .ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الإعتداء فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء .ثم ختمها بقوله أثيم وهو وصف جامع لأنواع الشرور فهي مرتبة أخرى أشد إيذاءً .جاء في بدائع الفوائد :وأما تقدم همّاز على مشّاء بنميم فالرتبة لأن المشي مرتب على القعود في المكان .والهماز هو العيّاب وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النميم .وأما تقدم" مناع للخير "على" معتد "فبالرتبة أيضاً لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره.

**وجعلوا من تقدم السمع على العلم حيث وقع في القرآن الكريم كقوله تعالى" وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "137" البقرة.....وقوله" إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "61" الأنفال..... وذلك أنه خبر يتضمن التخويف والتهديد .فبدأ بالسمع لتعلقه كالأصوات وهمس الحركات فإن من سمع حسك وخفي صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك :إنه يعلم وإن كان علمه تعالى متعلقاً بما ظهر وبطن وواقعاً على ما قرب وشطن .ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم.ويمكن أن يقال :إن السمع من وسائل العلم فهو يسبقه.

**وجعلوا منه أيضاً تقديم المغفرة على الرحمة نحو قوله" إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "173" البقرة.... في آيات كثيرة وقوله" وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا "100" النساء.... قالوا :وسبب تقديم الغفور على الرحيم أن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في سورة سبأ في قوله:" يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ " 2 ...فالرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً، والعموم قبل الخصوص بالرتبة .ولإيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعمّ.

**ومن التقديم بالرتبة أيضاً قوله تعالى في من يكنز الذهب والفضة" يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ "35" التوبة..... فبدأ بالجباه ثم الجنوب ثم الظهور قيل :لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم فتدرج حسب الرتبة.

وقد **يكون التقديم بحسب الكثرة والقلة** فقد يرتب المذكورات متدرجاً من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله" أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ "125" البقرة..... فكل طائفة هي أقل من التي بعدها فتدرج من القلة إلى الكثرة .فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة .والعكوف يكون في المساجد عموماً والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي الصلاة تكون في كل أرض طاهرة أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد .والراكعون أقل من الساجدين وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم إن كل راكع لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس فيه ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر فهو هنا تدرج من القلة إلى الكثرة .ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام فإن الكلام على بيت الله الحرام .قال تعالى" وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ "125" البقرة.....
فالطائفون هم ألصق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله، فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيوت الله عموماً ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.
ونحوه قوله تعالى" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "77" الحج..... فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات ثم السجود وهو أكثر ثم عبادة الرب وهي أعمّ ثم فعل الخير.
وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة وذلك نحو قوله تعالى" يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ "43" آل عمران..... فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة ثم السجود وهو أخص وأقل ثم الركوع وهو أقل وأخص.
ومنه قوله تعالى" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ "2" التغابن "فبدأ بالكفار لأنهم أكثر قال تعالى" وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ "103"يوسف. ...ونحوه قوله تعالى" ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ "32" فاطر.... فقدم الظالم لكثرته ثم المقتصد وهو أقل ممن قبله ثم السابقين وهم أقل .جاء في الكشاف في هذه الآية فإن قلت :لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت للإيذان بكثر الفاسقين وغلبتهم وإن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل .ألا ترى كيف قال الله تعالى في السابقين" ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ "13" وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ "14" الواقعة "إشارة إلى ندرة وقلة وجودهم؟
قالوا :ومن هذا النوع من القديم قوله تعالى" وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا "38" المائدة..... قدم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر .وقدم الزانية على

الزاني في قوله تعالى" الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ "2" النور " لأن الزنى فيهن أكثر .ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟ وجاء في حاشية ابن المنير على الكشاف قوله :وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو من الإيماض والإطماع والكلام، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها. وقد يكون التقديم لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق فنراه يقدم لفظة في موضع ويؤخرها في موضع آخر بحسب ما يقتضي السياق.

فمن ذلك **<u>تقديم لفظ الضرر على النفع وبالعكس</u> أيّ: إنه حيث تقدم لنفع على الضر فلتقدم ما يتضمن النفع .قال تعالى" قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ "188"الأعراف "فقدم النفع على الضرر وذلك لأنه تقدمه في قوله" مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ "178" الأعراف.... فقدم الهداية على الضلال وبعد ذلك قال" وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ""188 ....فقدم الخير على السوء ولذا قدم النفع على الضرر إذ هو المناسب للسياق.

وقال" :قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ "49" يونس....فقدّم الضرر على النفع وقد قال قبل هذه الآية" وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ "11" يونس... وقال" وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "12" يونس"... فقدم الضر على النفع في الآيتين .ويأتي بعد هذه الآية قوله" :قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ""50 ....فكان المناسب تقديم الضرر على النفع ههنا.

وقال:" قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا "16" الرعد.... فقدّم النفع على الضرر، قالوا :وذلك لتقدم قوله تعالى" وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ "15" "" الرعد.... فقدم الطوع على الكره .وقال" :فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا "42" سبأ.... فقدم النفع على الضر قالوا :وذلك لتقدم قوله" قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ "39" سبأ... فقدم البسط .وغير ذلك من مواضع هاتين اللفظتين.

**ومن ذلك تقديم الرحمة والعذاب فقد قيل إنه حيث ذكر الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى" يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ "18" المائدة "وقوله" إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ "43" فصلت "وقوله" غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ

ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ "3" غافر"
وعلى هذا جاء قول النبي - صلى الله عليه وسلم - حكاية عن الله تعالى ":إن رحمتي سبقت غضبي"
وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً .من ذلك قوله تعالى في سورة المائدة" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ""40" لأنها وردت في سياق ذكر قطاع الطرق والمحاربين والسرّاق كان المناسب تقديم ذكر العذاب وذلك أنها وردت بعد قوله تعالى" مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ "32" المائدة "فقدم القتل على الإحياء ثم قال بعدها" إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ""33" ثم جاء بعدها" وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ""38"ثم جاء بعدها قوله تعالى" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ""40" فأنت ترى أن المناسب ههنا تقديم العذاب على المغفرة.
جاء في الكشاف:[في قوله تعالى" وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا "إلى قوله" يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ" "فإن قلت لم قدم التعذيب على المغفرة؟ قلت لأنه قوبل بذلك تقديم السرقة على التوبة."
ومن ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت" يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ 21"...وذلك لأنها في سياق إنذار ابراهيم لقومه ومخاطبة نمرود وأصحابه وأن العذاب وقع بهم في الدنيا .فقد أنذر ابراهيم قومه قائلاً" :إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ "17" العنكبوت "ثم قال" :وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ""18" وهددهم بعد بقوله" وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ""23" فأنت ترى أن السياق يقتضي تقديم العذاب هنا.
وقد يكون التقديم والتأخير على نمط غير الذي ذكرت من تقديم الضرر والنفع والعذاب

والمغفرة وغيرها من الخطوط العامة .فقد يقدم لفظة في مكان ويؤخرها في مكان آخر حسبما يقتضيه السياق.

**فمن ذلك قوله تعالى" وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ "31" الأنبياء "وقوله" وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا "19" لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا "20" نوح "فقدم الفجاج على السبل في الآية الأولى وأخرها عنها في آية نوح وذلك أن الفجّ في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكر للجبال فأخرها .فوضع كل لفظة في الموضع الذي تقتضيه.

**ومثل ذلك قوله تعالى" وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ "157" وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ "158" آل عمران "فقدم القتل على الموت في الآية الأولى وقدم الموت في الآية التي تليها وسبب ذلك والله أعلم أنه لما ذكر في الآية الأولى" في سبيل الله "وهو الجهاد قدم القتل إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنّة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً ولذا ختمها بقوله" لمغفرة من الله ورحمة "فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله .ولما لم يقل في الثانية" في سبيل الله "قدم الموت على القتل لأنه الحالة الطبيعية في غير الجهاد ثم ختمها بقوله" لإلى الله تحشرون "إذا الميت والمقتول كلاهما يحشره الله إليه .فشتان ما بين الخاتمتين .فلم يزد في غير الشهيد ومن مات في سبيل الله على أن يقول" لإلى الله تحشرون "وقال في خاتمة الشهيد "لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون "فوضع كل لفظة الموضع الذي يقتضيه السياق.

**وقال تعالى" أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ "27" السجدة "فقدم الأنعام على الناس .وقال في مكان آخر" وَفَاكِهَةً وَأَبًّا "31" مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ "32" عبس "فقدم الناس على الأنعام وذلك لأنه لما تقدم ذكر الزرع في آية السجدة ناسب تقديم الأنعام بخلاف آية عبس فإنها في طعام الإنسان قال تعالى" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ "24" أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا "25"ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا "26" فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا "27" وَعِنَبًا وَقَضْبًا "28" وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا "29" وَحَدَائِقَ غُلْبًا "30" وَفَاكِهَةً وَأَبًّا "31" مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ "32" عبس " ألا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكه أولاً ثم ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأبّ أي التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام ههنا كما ناسب تقديم الأنعام على الناس ثمّ .فسبحان الله رب العالمين

**ومن ذلك قوله تعالى" وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ "151" الأنعام "وقوله" وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا "31" الإسراء "فقدم رزق الآباء في الآية الأولى على الأبناء، وفي الثانية قدم رزق الأبناء على الآباء وذلك لأن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه فأوجبت البلاغة تقديم عِدتهم بالرزق تكميل العدة برزق الأولاد .وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنوا ما خافوا من الفقر .فقل :لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم أي أن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر.

**ومن ذلك قوله تعالى" خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "7" البقرة "....وقوله" وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً "23" الجاثية "....فقدم القلوب على السمع في البقرة وقدم السمع على القلب في الجاثية وذلك لأنه في البقرة ذكر القلوب المريضة فقال" فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ""10" ....فقدم القلوب لذلك .وفي الجاثية ذكر الأسماع المعطلة فقال" وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ "7" يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ "8" الجاثية..... فقدم السمع .فوضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها.

ثم إن آية البقرة ذكرت صنفين من أصناف الكافرين من هم أشد ضلالاً وكفراً ممن ذكرتهم آية الجاثية فقد جاء فيها قوله تعالى" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ "6" خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "7" البقرة "وجاء في الجاثية قوله" أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ""23" .....فقد ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم ميؤوس من إيمانهم ولم يقل مثل ذلك في الجاثية.

ثم كرّر حرف الجر" على "مع القلوب والأسماع في آية البقرة مما يفيد توكيد الختم فقال" عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ "ولم يقل مثل ذلك في الجاثية بل انتظم الأسماع والقلوب بحرف جر واحد فقال" وختم على سمعه وقلبه. "

ثم قال في البقرة" وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ "بالجملة الإسمية والجملة الإسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هذا شأنهم وخلقتهم فلا أمل في إبصارهم في يوم من الأيام .في حين قال في الجاثية" وَجَعَلَ

عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً "بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث ومعلوم أن" جعل "فعل ماض ومعنى ذلك أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل يدلك على ذلك قوله تعالى" وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ "مما يدل على أنه كان مبصراً قبل ترديه .ثم ختم آية البقرة بقوله" وله عذاب عظيم "ولم يقل مثل ذلك في آية الجاثية .فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيهم .ولذا قدم ختم القلب على ما سواه لأنه هو الأهم فإن القلب هو محل الهدى والضلال وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر قال تعالى" فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ "46" الحج. "

وقال - صلى الله عليه وسلم :- [ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب]

فكان تقديم القلب في البقرة أولى وأنسب كما أن تقديم السمع في الجاثية أنسب.

ومنه قوله تعالى" وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ "14" النحل "وقوله" وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ "12"فاطر: "

قّدم المواخر على الجار والمجرور في النحل وقدم" فيه "على مواخر في فاطر .وذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال وذكر الخيل والبغال والحمير نركبها وزينة ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضاً فقال" وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "14" النحل"..... قدّم المواخر لأنه من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل .وليس السياق كذلك في سورة فاطر وإنما قال الله تعالى" وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ "11" فاطر..... ثم قال" وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ""12"....فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم .فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على المواخر فقال" وترى الفلك فيه مواخر " فانظر كيف أنه لما كان الكلام على وسائط النقل والفلك قدم حالة الفلك ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به.

هنا هنا

**ومن ذلك قوله تعالى" وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا "89" الإسراء.....وقوله" وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا "54" الكهف...قدم" للناس "على" في هذا القرآن "في الإسراء وأخّرها في الكهف وذلك لأنه تقدم الكلام في الإسراء على الإنسان ونعم الله عليه ورحمته به فقال" وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ""83" إلى أن يقول" وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا "86" إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا "87" قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ""88" فناسب تقديم الناس في سورة الإسراء.

ولم يتقدم مثل ذلك في سورة الكهف .ثم انظر في افتتاح كل من السورتين فقد بدأ سورة الكهف بقوله" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا "1" قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ""2" فقد بدأ السورة بالكلام على الكتاب وهو القرآن ثم ذكر بعده أصحاب الكهف وذكر موسى والرجل الصالح وذكر ذا القرنين وغيرهم من الناس، فبدأ بذكر القرآن ثم ذكر الناس فكان المناسب أن يتقدم ذكر القرآن على الناس في هذه الآية كما في البدء.

وأما في سورة الإسراء فقد بدأت بالكلام على الناس ثم القرآن فقد بدأت بقوله تعالى "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ""1" ثم تكلم على بني إسرائيل ثم قال بعد ذلك" :إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ""9" فكان المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن في هذه الآية وهذا تناسب عجيب بين الآية ومفتتح السورة في الموضعين.

ثم انظر خاتمة الآيتين فقد ختم آية الإسراء بقوله" فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ""89" والكفور هو جحد النعم فناسب ذلك تقدم ذكر النعمة والرحمة والفضل ألا ترى مقابل الشكر الكفران ومقابل الشاكر الكفور قال تعالى" إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا "3"الإنسان "فكان ختام الآية مناسب لما تقدم من السياق .أما آية الكهف فقد ختمها بقوله" وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ""54"لما ذكر قبلها وبعدها من المحاورات والجدل والمراء من مثل قوله تعالى" فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ""34" وقوله" قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ""37" وبعدها" وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ""56"وذكر محاورة موسى الرجل الصالح ومجادلته فيما كان يفعل .وقال" فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ""22" ولم يرد لفظ الجدل ولا المحاورة في سورة الإسراء كلها .

فما ألطف هذا التناسق وما أجمل هذا الكلام.!

تقديم وتأخير اللهو على اللعب في آية سورة العنكبوت
كل الآيات في القرآن جاء اللعب مقدّماً على اللهو إلا في هذه الآية من سورة العنكبوت "وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " "64"ولو لاحظنا الآية التي سبقت هذه الآية في نفس السورة" اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " "62" والرزق ليس من مدعاة اللعب وإنما اللهو كما في قوله تعالى في سورة المنافقون" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. " "9"
تقديم وتأخير كلمة" شهيداً "في آية سورة العنكبوت وآية سورة الإسراء
قال تعالى في سورة العنكبوت" قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ " "52" وقال في سورة الإسراء" قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً" "96"
في آية سورة الإسراء ختم تعالى الآية بذكر صفاته" خبيراً بصيرا "لذا اقتضى أن يُقدّم صفته" شهيداً "على" بيني وبينكم "، أما في آية سورة العنكبوت فقد ختمت الآية بصفات البشر" أولئك هم الخاسرون "لذا اقتضى تقديم ما يتعلّق بالبشر" بيني وبينكم " على" شهيدا. "
تقديم شبه الجملة" عليها زكريا "في قوله تعالى في سورة آل عمران" فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ " "37"
<u>قاعدة نحوية</u> :يقول سيبويه في التقديم والتأخير :يقدمون الذي هو أهمّ لهم وهم أعنى به.
والتقديم والتأخير في القرآن الكريم يقرره سياق الآيات فقد يتقدم المفضول وقد يتقدم الفاضل .والكلام في الآية في سورة آل عمران والآيات التي سبقتها في مريم عليها السلام وليس في زكريا ولا في المحراب لذا قدّم عليها لأن الكلام كله عن مريم عليها السلام.
تقديم وتأخير فوقكم والطور:
وكذلك قوله تعالى في الكلام عن بني إسرائيل والطور فقد قال تعالى في سورة البقرة "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " "63" وقال في سورة النساء" وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً " "154" وقال في

سورة الأعراف" وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" "171"
من حيث التقديم والتأخير هو قائم على الإهتمام الذي يقتضيه سياق الآيات سواء كان فضل أو مفضول وإنما للأهمية .في سورة البقرة" ورفعنا فوقكم الطور "فوقكم أهمّ من الطور نفسه وكذلك في آية سورة النساء أما آية سورة الأعراف فالجبل أهم من فوقهم.
في آية سورة الأعراف وصف تعالى الجبل كأنه ظُلّة وذكر" وظنوا أنه واقع بهم " ومعنى واقع بهم أي أوقع بهم أو أهلكهم وهذا كله له علاقة بالجبل فالجبل في الأعراف أهمّ .ولم يذكر عن الطور شيئاً آخر في سورة البقرة أو النساء.
آية البقرة والنساء يستمر الكلام بعد الآيات على بني إسرائيل حوالي أربعين آية بعد الآية التي جاء فيها ذكر الطور لذا قدّم فوقهم في النساء وفوقهم في البقرة على الطور للأهمية .أما في سورة الأعراف فبعد الآية التي تحدث فيها عن الجبل انتهى الكلام عن بني إسرائيل ولم يذكر أي شيء عنهم بعد هذه الآية لذا قدّم الجبل.
والجبل :هو إسم لما طال وعظُم من أوتاد الأرض والجبل أكبر وأهم من الطور من حيث التكوين .أما النتق فهو أشد وأقوى من الرفع الذي هو ضد الوضع .ومن الرفع أيضاً الجذب والإقتلاع وحمل الشيء والتهديد للرمي به وفيه إخافة وتهديد كبيرين ولذلك ذكر الجبل في آية سورة الأعراف لأن الجبل أعظم ويحتاج للزعزعة والإقتلاع وعادة ما تُذكر الجبال في القرآن في موقع التهويل والتعظيم ولذا جاء في قوله تعالى "وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ " "143" ولم يقل الطور .إذن النتق والجبل أشد تهديداً وتهويلاً.
تقديم وتأخير الأرض والسماء في قوله تعالى" وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء "وقوله" لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ"
التقديم والتأخير في السماء والأرض :الكلام في سورة يونس عن أهل الأرض فناسب أن يقدم الأرض على السماء في قوله تعالى" وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء "أما في سورة سبأ فالكلام عن الساعة والساعة يأتي أمرها من السماء وتبدأ بأهل السماء" فصعق من
في السموات والأرض "و" ففزع من في السموات ومن في الأرض "ولذلك قدّم السماء على الأرض في قوله تعالى" لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. "
واستخدمت السماء في سورة يونس لأن السياق في الإستغراق فجاء بأوسع حالة وهي

السماء لأنها أوسع بكثير من السموات في بعض الأحيان .فالسماء واحدة وهي تعني السموات أو كل ما علا وفي سورة سبأ استخدم السموات حسب ما يقتضيه السياق.
تقديم الأكل على الشرب في سورة مريم" فكلي واشربي وقرّي عينا"
نلاحظ الآية قبلها في سورة مريم" فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً "24" وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً "25" فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً . " "26" فقد وردت كلمة السري وهي تعني السيّد وجمعها سُراة أي السادة" ولا سُراة إذا جُهّالهم سادوا "، وهي بمعنى أن الله تعالى قد جعلك تحتك سيّدا .نلاحظ أنه في القرآن كله حيثما اجتمع الأكل والشرب قدّم تعالى الأكل على الشرب حتى في الجنّة "كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية "وقوله" كلوا واشربوا من رزق الله " وكذلك في آية سورة مريم" فكلي واشربي وقرّي عينا "والسبب في ذلك أن الحصول على الأكل أصعب من الحصول على الشرب.

المبحث الثالث

الذكر والحذف:

قال تعالى" :يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ "33"لقمان ..وقال تعالى" :وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "281" البقرة..في الآيتين جملتان وصفيتان فلماذا الحذف" فيه " في إحداها والذكر في الأخرى؟ السبب أن التقدير حاصل" يجزي فيه "لكن لماذا الحذف؟ الحذف يفيد الإطلاق ولا يختص بذلك اليوم .فالجزاء ليس منحصراً في ذلك اليوم وإنما سيمتد أثره إلى ما بعد ذلك اليوم وكلما يذكر الجزاء يحذف" فيه" "لا تجزي" و" لا يجزي"أما في الآية الثانية فذكر" فيه "لأنه منحصر فقط في يوم الحساب وليس عموماً .وكذلك في قوله تعالى" يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار "اليوم منحصر في يوم القيامة والحساب لذا ذكر" فيه . "وحذف" فيه "عندما كان اليوم ليس محصوراً بيوم معين.
"قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ "85" يوسف " محذوف حرف النفي" لا" "تالله لا تفتأ . "القاعدة :أنه إذا كان فعل مضارع مثبت لابد من حرف اللام فإن لم تذكر اللام فهو منفي مثال :والله أفعل" معناها لا أفعل "ووالله

لأفعل" معناها أثبّت الفعل "فلماذا حذف إذن؟ هذا هو الموطن الوحيد في القرآن الذي حُذف فيه حرف النفي جواباً للقسم.

وقد جاء في القرآن قوله تعالى" فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا "65" النساء "و"وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "38"النحل . "إنما آية سورة يوسف هي الوحيدة التي تفيد النفي ولم يذكر فيها حرف النفي لماذا؟ الذين أقسموا هم إخوة يوسف ومن المقرر في النحو أن الذكر يفيد التوكيد والحذف أقل توكيداً .فعلى ماذا أقسموا؟ أقسموا أن أباهم لا يزال يذكر يوسف حتى يهلك فهل هم متأكدون من ذلك؟ أي هل هم متأكدون أن أباهم سيفعل ذلك حتى يهلك وهل حصل ذلك؟ كلا لم يحصل.في حين في كل الأقسام الأخرى في القرآن الأمر فيها مؤكد .أما في هذه الآية لا يؤكد بالحذف لحرف النفي مع أنه أفاد النفي.

فتأ :من معانيها في اللغة نسي وسكّن وأطفأ النار يقال فتأت النار والإتيان بالفعل" فتأ " في هذه الآية وفي هذا الموطن جمع كل هذه المعاني .كيف؟ المفقود مع الأيام يُنسى ويُكفّ عن ذكره أو يُسكّن لوعة الفراق أو نار الفراق في فؤاد وفي نفس من فُقد له عزيز .ولو اختار أي فعل من الأفعال الأخرى المرادفة لفعل فتأ لم تعطي كل هذه المعاني المختصة في فعل فتأ.

قال تعالى في سورة النساء" بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ""138" وقال تعالى في سورة البقرة" وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ""25"

ذكر الباء في الآية الأولى" بأن "وحذفها في الثانية" أن "مع أن التقدير هو" بأن "لماذا؟ لأن تبشير المنافقين آكد من تبشير المؤمنين، ففي السورة الأولى أكّد وفصّل في عذاب المنافقين في عشرة آيات من قوله" ومن يكفر بالله وملائكته . "أما في الآية الثانية فهي الآية الوحيدة التي ذكر فيها كلاماً عن الجزاء وصفات المؤمنين في كل سورة البقرة . إذن" بأن "أكثر من" أن "فالباء الزائدة تناسب الزيادة في ذكر المنافقين وجزاؤهم.

وقال تعالى في سورة الأحزاب" وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ""47" لأنه تعالى فصّل في السورة جزاء المؤمنين وصفاتهم.

الحذف من الفعل:

تتوفاهم – توفّاهم، تنزّل – تتنزّل، تذكرون – تتذكرون، تبدّل – تتبدل.

الحذف من الفعل يدخل تحت ضابطين في القرآن كله:
١-يحذف من الفعل إما للدلالة على الإقتطاع من الفعل.
٢-يحذف من الفعل في مقام الإيجاز ويذكر في مقام التفصيل.
قال تعالى في سورة فصلت" إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ "30" وقال في سورة القدر "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ "4" استخدم نفس الفعل المضارع لكن حذفت التاء في الآية الثانية" تنزّل "لماذا؟
الآية الأولى هي عند الموت تنزل الملائكة على الشخص المستقيم تبشرّه بمآله إلى الجنة، أما الثانية فهي في ليلة القدر، التنزّل في الآية الأولى يحدث في كل لحظة لأنه في كل لحظة يموت مؤمن في هذه الأرض إذن الملائكة في مثل هذه الحالة تتنزّل في كل لحظة وكل وقت أما في الآية
الثانية فهي في ليلة واحدة في العام وهي ليلة القدر .لإذن التنزّل الأول أكثر استمرارية من التنزّل الثاني، ففي الحدث المستمر جاء الفعل كاملاً غير مقتطع" تتنزّل "أما في الثانية في الحدث المتقطع اقتطع الفعل" تنزّل. "
مثال آخر في قوله تعالى في سورة النساء" إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا "97" وفي سورة النحل" الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . "28" لنستعرض المتوفين في السياقين :في آية سورة النساء المتوفون هم جزء من المتوفين في آية سورة النحل ففي سورة النساء المتوفون هم المستضعفون من الذين ظلموا أنفسهم أما في سورة النحل فالمتوفون هم ظالمي أنفسهم كلهم على العموم .
فأعطى تعالى القسم الأكبر الفعل الأطول وأعطى القسم الأقل الفعل الأقلّ.
مثال آخر :قال تعالى في سورة الشورى" شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ "13"
وقال في سورة آل عمران
"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ "103" في الآية الأولى الوصية خالدة من زمن سيدنا نوح - عليه السلام - إلى خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - فجاء الفعل" تتفرقوا "أما في

الآية الثانية فهي خاصة بالمسلمين لذا جاء الفعل" تفرّقوا . "والأمة المحمدية هي جزء من الأمم المذكورة في الآية الأولى .وكذلك فالحدث ممتد في الأولى" تتفرقوا "والحدث محدد في الثانية" تفرقوا . "فالأولى وصية خالدة على زمن الأزمان" ولا تتفرقوا فيه " لأن هذا هو المأتى الذي يدخل إليه أعداء الإسلام فيتفرقون به لذا جاءت الوصية خالدة مستمرة، وصّى تعالى الأمم مرة ووصّى الأمة الإسلامية مرتين .والآية الأولى أشد تحذيراً للأمة الإسلامية" شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك . " شرعه لنا في الوصية العامة لنوح وخصّ بالذي أوحينا إليك ثم خصّ الأمة الإسلامية في الآية الثانية .والحذف له سببان هنا الأول لأن الأمة المحمدية أصغر .ونهانا عن التفرّق مهما كان قليلاً وأراد ربنا تعالى أن نلتزم بهذا الأمر" لا تفرقوا "وقال "واعتصموا بحبل الله جميعا. "أكد على الجمع الكامل وعلى سبيل العموم كأنه فرض عين على الجميع فلا يُعفى أحد من المسؤولية أن لا نتفرق وأن نعتصم بحبل الله وذكرهم بنعم الله عليهم وتوعدهم على الإختلاف بالعذاب العظيم وأطلق العذاب ولم يحصره في الآخرة إنما قد يطالهم في الدنيا والآخرة .المصدر لا يعمل بعد وصفه" يوم تبيض وجوه وتسود وجوه "ليست متعلقة بالعذاب العظيم .التفرّق يكون عذابه عظيماً في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى" والذي أوحينا إليك "اختار الإسم الموصول" الذي "عندما ذكر شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم يقل" وما أوحينا إليك "لأن" الذي "أعرف وأخصّ من" ما "التي تشترك في المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .وقد بيّن تعالى شريعتنا وعرفناها فجاء بالأعرف" اسم الموصول الذي "، لا نعلم على وجه التفصيل ما وصّى الله تعالى نوحاً وعيسى وموسى وإبراهيم لذا اختار سبحانه" ما "اسم الموصول غير المعرّف.

واستخدام صيغة الماضي والمضارع في القرآن كثير مثل قوله تعالى" وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا "92" النساء"

أسئلة:

١- فأكله الذئب :لماذا لم يقل أفترسه لأن هذا عادة الذئب الإفتراس؛ والإفتراس يُفترض أن يمزّق ثيابه كلها وإخوة يوسف جاءوا على قميصه بدم كذب فدلّ ذلك على أن الذئب لم يفترسه لذا جاء فعل" فأكله. "

٢- قال تعالى" :بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا "138" النساء "المعروف أن التبشير بالشيء الحسن أما هنا فجاء التبشير من باب السخرية والتهكم منهم .كما في قوله تعالى أيضاً" ذُق أنك أنت العزيز الكريم "العزيز الكريم من باب التهكم والسخرية.
٣-لماذا نصب" ديناً "في قوله تعالى" قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ "161" الأنعام "؟ النصب يدخل في باب التخصيص بالمدح.
٤- قال تعالى" اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ "2" الرعد "على ماذا يعود الضمير في ترونها؟ قسم يقول إنها عمد غير مرئية بمعنى" بغير عمد مرئية "وقسم قال" بغير عمد ثم استأنف ترونها بمعنى ترونها مرفوعة بغير عمد .هناك تعبيرات قطعية وتعبيرات ظنيّة وهذه الآية تحتمل المعنيين.
٥- ما الفرق بين " استطاعوا " وَ " اسطاعوا " في سورة الكهف" فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ""97" ؟ هذه من الحذف للتقليل من الفعل كما ذكرنا سابقاً .استطاعوا تحتاج إلى جهد لنقب السدّ أما اسطاعوا فهي للصعود على ظهره وبالتأكيد أن إحداث نقب في السد المصنوع من الحديد والنحاس أشدّ من الصعود على ظهره ويستغرق وقتاً أطول فحذف من الفعل الذي مدته أقل وذكر في الحدث الممتد
٦- ما دلالة التذكير والتأنيث في قوله تعالى" وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ "30" يوسف "؟ بحسب القاعدة النحوية المعروفة أنه جائز باعتبار أن جمع التكسير يجوز تذكيره وتأنيثه .يؤنّث الفعل عندما يكون الفاعل أكثر وإذا كان أقل يُذكّر الفعل .ونسوة هن حاشية امرأة العزيز .كما جاء في قوله أيضاً" قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "14"الحجرات "استخدم الفعل قالت مؤنثاً لأن الأعراب كُثُر .وكذلك في قوله تعالى "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "183" آل عمران " هؤلاء مجموعة من الرسل أما في قوله تعالى" هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ "53" الأعراف "المذكورون هم جميع الرسل وهم أكثر من الأولى لذا جاء الفعل مؤنثاً.

٧ـلماذا التحول في الخطاب من المفرد إلى الجمع في قوله تعالى" الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى "53" طه "؟ هذا يسمى التفاف ويستعمل لتطرية نشاط السامع وقد ورد في القرآن كثيراً .يلتفت من الغائب إلى الحاضر ومن الجمع إلى الإفراد ومن الغائب إلى المتكلم.
٨ـما معنى جيوبهن؟ الجيب هو فتحة الصدر.

المبحث الرّابع
التذكير والتأنيث

قال تعالى" ولا تكونوا كالذين جاءهم البينات "وقال تعالى" وما كان صلاتهم عند البيت" وقال تعالى" قد كان لكم فيهم أسوة حسنة"

هناك خط بلاغي في القرآن الكريم حول هذا الموضوع وقد أُثير في عديد من الأسئلة خلال الحلقات ونذكر منها ما جاء في تذكير وتأنيث الفعل مع كلمة الضلالة والعاقبة وكذلك مع كلمة الملائكة وكذلك مع كلمة البيّنات .وقلنا باختصار أنه:

١ـ**تذكير اللفظ المؤنث** له أكثر من سبب وأكثر من خط في القرآن الكريم .فإذا قصدنا باللفظ المؤنّث معنى المذكّر جاز تذكيره وهو ما يُعرف بالحمل على المعنى .وقد جاء في قوله تعالى عن الضلالة" فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ "30" الأعراف "وقوله تعالى "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

”36“النحل . ”ونرى أنه في كل مرة يذكر فيها الضلالة بالتذكير تكون الضلالة بمعنى العذاب لأن الكلام في الآخرة“ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ”29“ الأعراف ”وليس في الآخرة ضلالة بمعناها لأن الأمور كلها تنكشف في الآخرة .وعندما تكون الضلالة بالتأنيث يكون الكلام في الدنيا فلمّا كانت الضلالة بمعناها هي يؤنّث الفعل.

... *وكذلك بالنسبة لكلمة العاقبة أيضاً تأتي بالتذكير مرة وبالتأنيث مرة، وعندما تأتي بالتذكير تكون بمعنى العذاب وقد وردت في القرآن الكريم 12 مرة بمعنى العذاب أي بالتذكير والأمثلة في القرآن كثيرة منها قوله تعالى في سورة الأنعام“ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ” ”11“ وسورة يونس“ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ” ”73“ و“ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ”84“ الأعراف ”و“ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ”73“ الصافّات ”المقصود بالعاقبة هنا محل العذاب فجاء الفعل مذكراً .وعندما تأتي بالتأنيث لا تكون إلا بمعنى الجنّة كما في قوله تعالى“ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ”37“ القصص ”وقوله تعالى في سورة الأنعام“ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. ” ”135“

... *تذكير كلمة شفاعة مرة وتأنيثها مرة أخرى في سورة البقرة :قال تعالى في سورة البقرة“ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ” ”48“ وقال في نفس السورة“ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ. ” ”123“ جاءت الآية الأولى بتذكير فعل“ يقبل ”مع الشفاعة بينما جاء الفعل“ تنفعها ”مؤنثاً مع كلمة الشفاعة نفسها .الحقيقة أن الفعل“ يقبل ”لم يُذكّر مع الشفاعة إلا في الآية 123 من سورة البقرة وهنا المقصود أنها جاءت لمن سيشفع بمعنى أنه لن يُقبل ممن سيشفع أو من ذي الشفاعة .أما في الآية الثانية فالمقصود الشفاعة نفسها لن تنفع وليس الكلام عن الشفيع .وقد وردت كلمة الشفاعة مع الفعل المؤنث في القرآن الكريم في آيات أخرى منها في سورة يس“ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ ” ”23“ وسورة النجم“ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى. ” ”26“

... *وكذلك كلمة“ البيّنات ”فإذا كانت بمعنى العلامات الدالة على المعجزات أنّث الفعل وإذا كانت بمعنى الأمر والنهي وحدّ الله والدين ذكّر الفعل هناك حكم نحوي مفاده أنه

يجوز أن يأتي الفعل مذكراً والفاعل مؤنثاً .وكلمة" البيّنات "ليست مؤنث حقيقي لذا يجوز تذكيرها وتأنيثها .والسؤال ليس عن جواز تذكير وتأنيث" البيّنات "لأن هذا جائز كما قلنا لكن السؤال لماذا؟ لماذا جاء بالاستعمال فعل المذكر" جاءهم البيّنات "مع العلم أنه استعملت في غير مكان بالمؤنث" جاءتهم البيّنات "؟

جاءتهم البيّنات بالتأنيث :يؤنّث الفعل مع" البيّنات "إذا كانت الآيات تدلّ على النبوءات فأينما وقعت بهذا المعنى يأتي الفعل مؤنثاً كما في قوله تعالى في سورة البقرة" فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " "209" والآية" كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ " "213" و" تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ " "253" ، وقوله في سورة النساء" يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً. " "153"

... *أما" جاءهم البيّنات "بالتذكير :فالبيّنات هنا تأتي بمعنى الأمر والنهي وحيثما وردت كلمة البيّنات بهذا المعنى من الأمر والنهي يُذكّر الفعل كما في قوله تعالى في سورة آل عمران" كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " "86" و" وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " "105" وفي سورة غافر "قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. " "66"

<u>٢-التأنيث للكثرة والتذكير للقلة</u>: وقد يكون التأنيث للكثرة والتذكير للقلة كما في قوله تعالى" قالت الأعراب آمنا "وقوله تعالى" وقال نسوة في المدينة . "ونقول أن هذا الأمر جائز من حيث الجواز اللغوي وليس في هذا شيء لكن السؤال يبقى لماذا اختار تعالى التذكير في موضع والتأنيث في موضع آخر؟ ونأخذ قوله تعالى" جاءكم رسول "بتذكير فعل جاءكم، وقوله تعالى" جاءت رسل ربنا "بتأنيث فعل جاءت .ونلاحظ أنه في الآية الأولى كان الكلام عن جميع الرسل في جميع الأمم من آدم إلى أن تقوم الساعة وهذا

يدل على الكثرة فجاء بالفعل مؤنّثاً للدلالة على الكثرة .أما في الآية الثانية فالخطاب لبني إسرائيل ولزمرة منهم وفي حالة معينة أيضاً وهذا يدل على القلة فجاء بالفعل مذكّراً.

... *مثال آخر قوله تعالى" وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ "35" الأنفال "والمكاء والتصدية :هما التصفيق والصفير وكلاهما مذكّر وجاء الفعل مع كلمة" الصلاة "مذكراً لأن المراد بالصلاة هنا التصفيق والصفير وكلاهما مذكر .والصلاة عندهم كانت تفيد الطواف والطواف مذكّر أيضاً "صلاتهم كانوا يطوفون وحول الكعبة ويصفقون ويصفرون . "إذن الطواف والتصفيق والصفير كلّها مذكّر فجاء الفعل مع كلمة الصلاة المقصود بمعناها المذكر جاء مذكراً.

... *قال تعالى" يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا "30" وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا "31" الأحزاب "هذه الآية ليست من باب التذكير والتأنيث أصلاً وتذكير الفعل والفاعل وإنما هي من باب استعمال" من . "والسؤال هو لماذا استعمل" من "في الآية؟ من أصلاً في اللغة تستعمل للمذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع وطبيعة الأكثر في كلام العرب والقرآن أنه حتى لو كان الخطاب للإناث أو الجمع يأتي أول مرة بـ" من "بصيغة المفرد المذكر ثم يعقبه ما يوضح المعنى .ومهما كانت حالة من سواء أكانت إسماً موصولاً أو نكرة تامة بمعنى شخص أو ذات أو كانت اسم شرط، يؤتى بها بصيغة المفرد المذكر أول مرة ثم يُعاد عليها بمعناها في المرة الثانية كقوله تعالى" ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين "وهذا هو خط القرآن وهو الأكثر في كلام العرب وهذا هو الأصل .وكقوله تعالى" ومنهم من يقول ائذن لي. "والآية موضع السؤال" من يأت منكن "تدخل في هذه القاعدة جاء بـ" من "بما يدل على الإفراد والتذكير ثم جاء فيما بعد بما يدل على المعنى .وإذا خرج عن هذا الأمر كما في قوله تعالى" ومنهم من ينظر إليك ومنهم من يستمعون إليك "جاء في الأولى بالإفراد والثانية جمع لماذا؟ نسأل أيهما أكثر الذين ينظرون إلى الشخص أم الذين يستمعون إليه؟ الجواب الذين يستمعون ولهذا عبّر عنهم بالجمع لأنهم أكثر .ولهذا عندما يخالف القاعدة فإنه يخالف بما يقتضيه السياق والمعنى.

... *مثال آخر قوله تعالى في سورة الممتحنة" قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ""4" وفي

نفس السورة" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ""6" وفي سورة الأحزاب" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ""21" ونقول أنه من الناحية النحوية إذا كثرت الفواصل فالتذكير أفضل .في الآية الأولى الفاصل بين الفعل وكلمة أسوة" لكم "أما في الآية الثانية فالفاصل" لكم فيهم "وفي الثالثة" لكم في رسول الله " فعندما تكون الفاصلة أكثر يقتضي التذكير .وهناك أمر آخر وهو أن التذكير في العبادات أفضل وأهمّ من التأنيث كما جاء في مريم" وكانت من القانتين "لأن الذين كملوا في التذكير أكثر .وكذلك عندما يتحدث عن عبادة الملائكة يذكّر.

أي العبادات أكثر في هذه الآيات؟ في الأولى الأسوة كانت في القول في أمر واحد إلا "إلا قول إبراهيم "جادله قومه والإستثناء هو قول إبراهيم، أما في الثانية" فيكم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر "هذه عامة وهي أهمّ ولذلك أكّدها باللام" لقد كان لكم "وجاء بأمرين بتذكير العبادة كما جاء باللام في جواب القسم المقدّر وكذلك في آية سورة الأحزاب الآية عامة ولم يخصص بشيء ولهذا ذكّر وخصص باللام الواقعة في جواب القسم، أما في الأولى فجاء بـ" قد "وأنّث الفعل .فعندما اتسعت العبادة وصارت أعمّ وأوسع من الأولى ذكّر وجاء باللام وهذا هو الأمر البياني بالإضافة إلى الأمر النحوي الذي تحدثنا عنه.

٣- التذكير والتأنيث على كلمة واحدة : قال تعالى في سورة ص" فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ " "73" وجاءت الملائكة هنا بالتذكير، وفي سورة آل عمران" فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ " "39" جاءت الملائكة بالتأنيث.

الحكم النحوي :يمكن أن يؤنّث الفعل أو يُذكّر إذا كان الجمع جمع تكسير كما في قوله تعالى" قالت الأعراب آمنا "و" قالت نسوة في المدينة "فيجوز التذكير والتأنيث من حيث الحكم النحوي.

اللمسة البيانية :أما لماذا اختار الله تعالى التأنيث في موطن والتذكير في موطن آخر فهو لأن في الآيات خطوط تعبيرية هي التي تحدد تأنيث وتذكير الفعل مع الملائكة .وهذه الخطوط هي:

... *في القرآن الكريم كله كل فعل أمر يصدر إلى الملائكة يكون بالتذكير" اسجدوا، أنبئوني، فقعوا له ساجدين"

... *كل فعل يقع بعد ذكر الملائكة يأتي بالتذكير أيضاً كما في قوله تعالى" والملائكة يدخلون عليهم من كل باب "و" الملائكة يشهدون" "الملائكة يسبحون بحمد ربهم"

... *كل وصف إسمي للملائكة يأتي بالتذكير" الملائكة المقرّبون" "الملائكة باسطوا أيديهم" "مسوّمين، مردفين، منزلين"
... *كل فعل عبادة يأتي بالتذكير" فسجد الملائكة كلهم أجمعين" "لا يعصون الله ما أمرهم "لأن المذكر في العبادة أكمل من عبادة الأنثى ولذلك جاء الرسل كلهم رجالاً.
... *كل أمر فيه شِدّة وقوة حتى لو كان عذابين أحدهما أشدّ من الآخر فالأشدّ يأتي بالتذكير" ولو ترى إذا يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق" "يتوفى "جاءت بالتذكير لأن العذاب أشد" وذوقوا عذاب الحريق "أما في قوله تعالى" فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم" "تتوفاهم " جاءت بالتأنيث لأن العذاب أخفّ من الآية السابقة .وكذلك في قوله تعالى" ونزّل الملائكة تنزيلا "بالتذكير وقوله تعالى" تتنزّل عليهم الملائكة "بالتأنيث وقوله" تنزل الملائكة والروح فيها من كل أمر "بالتأنيث.
... *لم تأت بشرى بصيغة التذكير أبداً في القرآن الكريم فكل بشارة في القرآن الكريم تأتي بصيغة التأنيث كما في قوله تعالى" فنادته الملائكة "و" قالت الملائكة"
... *قال تعالى" إذا جاءكم المؤمنات "هذه تندرج أيضاً في سياق الكثرة والقلة وفي سياق زيادة الفواصل أيضاً.

المبحث الخامس
التوكيد

من المعلوم أن يؤتى بالألفاظ المؤكدة بحسب الحاجة إليها، فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد، و قد يحتاج إلى مؤكد واحد أو أكثر بحسب ما يقتضيه المقام .و قد راعى القرآن الكريم ذلك أدق المراعاة في جميع ما ورد من مواطن التوكيد .فهو في غاية الدقة في اختيار الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضع المناسب بحسب طريقة فنية متقنة.

و لنضرب أمثلة على ذلك :

١-اللـفـظ الـمـؤكـد:

قد يأتي القرآن الكريم بلفظ مؤكد في موطن و ينزعه في موطن آخر يبدو شبيها به.

و من ذلك مثلاً:

أ -*الاتيان باللام التي تفيد التوكيد :و ذلك نحو قوله تعالى:

“فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين:29“ النحل... و قوله”:قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين”الزمر... 72:و قوله”:أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين 76”غافر...

فقد أدخل اللام في آية النحل على بئس فقال”:فلبئس مثوى المتكبرين“ دون الآيتين الأخريين إذ قال فيهما ”:فبئس مثوى المتكبرين ”و ذلك أنه في سورة النحل وصف قوما أشد كفراً و أكبر جرما من المذكورين في آيتي الزمر و غافر، و ذلك أنهم ضلوا و أضلوا غيرهم و حملوا من أوزار اللذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم، فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الأخريين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.

ب -*ادخال نون التوكيد على الفعل في الموضع الذي يقتضيه:

نحو قوله تعالى ”:الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين“ البقرة...147: و قوله : “الحق من ربك فلا تكن من الممترين“ آل عمران...60:ففي آيات البقرة من الأرجاف و الفتنة ما ليس في آية آل عمران،فاحتاج المقام في البقرة الى التوكيد بخلاف آل عمران.

ت -*التأكيد ب“ إنّ” نحو قوله تعالى”:وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ” آل عمران..129 :و”فمن خاف من موص جنفاً أو اثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم“ ”البقرة...182:فأنت ترى أنه في الآية الأولى لم يؤكد المغفرة بل قال“ و الله غفور رحيم“ أما الآية الثانية أكد المغفرة بقوله“ : إن الله غفور رحيم ”ذلك أن المقام في آية آل عمران هو في إذلال الكافرين و كبتهم و قطع طرف منهم فلا يناسب ذلك توكيد المغفرة .أما المقام في آية البقرة مقام الإصلاح وحفظ الموصي من أن يقع في جنف أو إثم .أفترى أن الذي يسعى في هذا لا يستحق توكيد المغفرة؟.

ث -*التوكيد بالحروف الزائدة:

من المعلوم أن ما يسمونه بالحروف الزائدة يفيد التوكيد في الأغلب.و منه قوله تعالى : “ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا”البقرة...282:زيدت”ما ”مؤكدة على الشهداء حضور الشهادة عند الدعوة إليها بخلاف قوله تعالى”:إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه “ البقرة... 282:و قوله”:و أشهدوا إذا تبايعتم“ البقرة...282:و ذلك أن الشهيد قد يتباطأ أو يتكاسل أو ينكص عن الشهادة لأنه ليست له مصلحة خاصة به أو قد تلحق به ضرراً فاحتاج الى التوكيد.

ج -*و قد يأتي بألفاظ التوكيد المعروفة في المواطن التي تقتضي ذلك و يتركها في مواطن أخرى تبدو شبيهة بها.
و من ذلك قوله تعالى" :وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ" البقرة...193:و قوله":وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" الأنفال ...39:فاكّد الدين بلفظ "كل "في الأنفال بخلاف البقرة و ذلك لأن القتال في البقرة مع أهل مكة فحسب، أما في الأنفال فمع جميع الكفار و لذا عمّم.
ح -*استعمال ضمير الفصل:
الذي يفيد التوكيد فتراه يستعمله استعمالا حسبما يقتضيه السياق و الفن.
و من ذلك قوله تعالى":إن الله ربي و ربكم فاعبدوه" آل عمران.51 :و قوله":و إن الله ربي و ربكم فاعبدوه" مريم ...36:و قوله":إن الله هو ربي و ربكم فاعبدوه " الزخرف ...64:فزاد ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين، و ذلك أن آية الزخرف قيلت في سياق عبادة عيسى و اتخاذه إلاهاً بخلاف غيرها، فناسب ذلك تأكيد ربوبية الله له.

٢-اختصاص الحرف بالدلالة على التوكيد دون نظيره:

و قد يستعمل طريقة أخرى للدلالة على التوكيد و هي أن يختص حرفا بالدلالة على التوكيد دون نظيره، و ذلك كاستعمال الهمزة و هل و استعمال حروف النفي فهو يستعمل"هل"للتوكيد دون" الهمزة "، و يستعمل" ما "للتوكيد دون" ليس "و يستعمل "إنّ "آكد من"ما"بطريقة فنية عجيبة.
فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:
"أفأُنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله اللذين كفروا و بئس المصير "الحج.72:
و قوله" : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله" المائدة...60.....فاستعمل الهمزة و "هل "مع الفعل" نبأ "و عند النظر في الاستعمالين نرى أنه استعمل" هل "لما هو آكد في الاستفهام،فأنت ترى أن في السياق الثاني قوة وتبكيتاً لا تجده فيما قبله .فذكر أن الكفار اتخذوا الدين و النداء و الصلاة هزوا ولعباً .و قد وصفهم بالفسق و عدم العقل، و أنهم لعنهم الله و غضب عليهم و ليس الأمر كذلك في الآية التي قبلها و لذا جاء في الأولى بالهمزة" قل أفأنبئكم بشر من ذلكم "و في الثانية بـ" هل" "قل هل أنبؤكم بشر من ذلك مثوبة عند الله."

٣-تكرار اللفظ الذي يريد توكيده:

و قد يستعمل طريقة أخرى للتوكيد و هي تكرار اللفظ الذي يريد توكيده و ذلك نحو قوله تعالى":الذين يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا و هم بالآخرة كافرون " "الأعراف"45 ....و قوله" :الذين يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا و هم بالآخرة هم كافرون "هود.19:فقد قال في آية الأعراف" :وهم بالآخرة كافرون"

و قال في هود" :و هم بالآخرة هم كافرون "فزاد" هم "للتوكيد،و ذلك لما زاد على الأولين افتراء الكذب على الله.فقد ذكر في الأعراف من صفات الظالمين أنهم يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجاً.

و ذكرها في هود و زاد عليها افتراء الكذب على الله فقال:"و من أظلم ممّن افترى على الله كذباً "18 ثم ذكر أن الأشهاد يقولون أمام الخلق:

"هؤلاء اللذين كذبوا على ربهم "18""فلما زاد في صفات الضلال أكد فيهم صفة الكفر بزيادة" هم"،و زاد لهم في العذاب فقال" : يضاعف لهم العذاب"،و زاد في صفة الخسران فقال" هم الأخسرون."فانظر الى جلال هذا التعبير و سموه.

٤. تخفيف التوكيد:

و كما يؤكد القرآن التعبير قد يخففه إذا اقتضى المقام ذلك، و ذلك كأن يأتي بـ" إن " المخففة و نون التوكيد الخفيفة للدلالة على تخفيف التوكيد حسبما يقتضيه الحال.

و من ذلك قوله تعالى على لسان امرأة عزيز مصر في يوسف:و لئن لم يفعل مآ ءامره ليسجنن و ليكوناً من الصاغرين" "يوسف."32:فقال" :ليسجننّ "بنون التوكيد الثقيلة ثم قال" و ليكوناً من الصاغرين "32" "بتخفيف النون .قالوا و ذلك" أن امرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجنه من أن يكون صاغراً "3"فزاد نوناً حيث اقتضى المقام زيادة التوكيد، و خفف حيث اقتضى تخفيفه.

٥-زيادة التوكيد:

و كما يخفف التوكيد قد يزيد فيه اذا اقتضى الكلام ذاك، و من ذلك قوله تعالى:

إن ربك سريع العقاب و إنه لغفور رحيم" "الأنعام"165:و قوله" :إن ربك لسريع العقاب و إنه لغفور رحيم" "الأعراف."167:فأكد سرعة العقاب ب" إن "و اللام في الأعراف فقال" :لسريع العقاب."أما في الأنعام فأكده بـ" إن "فقط.و ذلك أن الآية في سورة الأعراف ذُكرت في سياق العقوبات العاجلة في الدنيا، و أن الآية في الأنعام ذُكرت في سياق العقوبات الآجلة في الآخرة.فلما عجل لهم العقوبة في الدنيا في سورة الأعراف أكد سرعة العقاب بإن و اللام.و لما أمهلهم الى يوم القيامة في سورة الأنعام قلل توكيد سرعة العقاب لانه لم يسرع في عقوبتهم بل أمهلهم.

المبحث السادس
التشابه والاختلاف

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكن الاختلاف في حرف أو كلمة .أو نحو ذلك.
وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزئياته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز .وكلما تأملت في ذلك أزددت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم.
فمن ذلك استعمال لفظ" مكة "و" بكة "لأم القرى.
جاء في قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ ءايات بينات مَّقَامُ إبراهيم وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالمين" آل عمران. "97-96 :
فاستعمل اللفظ" بكة "بالباء في حين قال:" وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً" "الفتح. 24
فاستعمل لفظ" مكة "بالميم وهو الاسم المشهر لأم القرى.
وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج" :وَللَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت" "آل عمران "97 :فجاء بالاسم" بكة "من لفظ" البَكِّ "الدال على الزحام لأنه في الحج بيكّ الناسُ بعضهم بعضاً، أي :يزحم بعضهم بعضاً، وسميت" بكة "لأنهم يزدحمون فيها.وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور لها أعني" :مكة "بالميم، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه والله أعلم.
ولا مانع أن يكون ذلك لكلا السببين.ومن ذلك قوله تعالى:"إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سواء فَإِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً" "النساء "149 ....قوله" :إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً" الأحزاب "54 ....فقد قال في آية النساء" :إِن تُبْدُواْ خَيْراً" "النساء "149 ....وفي الأحزاب" :إِن تُبْدُواْ شَيْئاً" "الأحزاب"54 :... وذلك أن آية النساء وردت بعد قوله تعالى" :لاَّ يُحِبُّ الله الجهر بالسواء مِنَ القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ ... " "النساء "148 :....فذكر أنّ الله لا يحب الجهر بالسوء، ولذا قال بعدها" :إِن تُبْدُواْ خَيْراً" "النساء "149 :أي :إن تُظهروا خيراً، هو عكس الجهر بالسوء .فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به بخلاف الجهر بالخير.
وأما في آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة فقد قال قبلها" :والله يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ" " ... الأحزاب . "51 :وقال" :وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً" "الأحزاب "52 :وختم الآية بقوله" :فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً" "الأحزاب :

"54....معنى الآية إنه يستوي عنده السر والجهر، فناسبَ أن يقول" :إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ" "الأحزاب "54 :لا أن يقول" :إِن تُبْدُواْ خَيْراً" "النساء "149 :هذه علاوة على مناسبة كلمة" شيء "الواقعة قبلها وبعدها، فوضع كل لفظة في مكانها المناسب لها.
هذا من ناحية .ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري لكل سورة في هاتين السورتين يقتضي وضع كل لفظة من هاتين اللفظتين في موضعها .ذلك أن كلمة" خير "ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة ولم ترد سورة الأحزاب إلا مرتين.
و كلمة" شيء "ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة وترددت في سورة الأحزاب ست مرات، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللفظتين لكل آية فمن الواضح أن تختار كلمة" خير "لآية النساء وكلمة" شيء "لآية الأحزاب.
فاقتضى التعبير اختيار كل لفظة من جهتين :جهة المعنى والسياق .وجهة اللفظ.
فانظر أي تعبير هذا؟
ومن ذلك قوله تعالى" :واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل" "البقرة. "191 :
وقوله" :يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله والفتنة أَكْبَرُ مِنَ القتل" "لبقرة : 217" .
فقد قال في الآية الأولى" :أشد "وفي الآية الثانية" :أكبر "وذلك لأن الكلام في الآية الثانية على كبيرات الأمور فقد مر فيها قوله" :قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ" "البقرة :
"217وقوله" :وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله" "البقرة "217 :فناسب ذكر" أكبر "فيها.
وليس السياق كذلك في الآية الأولى، وإنما هي في سياق الشدة على الكافرين فقد قال فيها" :واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل" "البقرة . "191 :وهذه شدة ظاهرة فناسب ذكر" أشد "فيها بخلاف الآية الثانية.
ومن ذلك قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام في سورة هود:
"وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله" " ... هود. "29 :
ووردت في غير هذا الموضع كلمة" أجر "بدل كلمة" مال . "فقد جاء في سورة يونس على لسان نوح عليه السلام:
"فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله" " ... يونس. "72 :
وجاء على لسانه أيضاً في سورة الشعراء:
"وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين" "الشعراء. "109 :

وكذا وردت كلمة" أجر "بدل كلمة" مال "على لسان غيره من الأنبياء - انظر" :سورة هود 51 وسورة الشعراء127 ،145 ،164 ، 180 وسورة سبأ. "47
وسبب ذلك أنه في الموضع الذي وردت فيه كلمة" مال "وقعت بعدها كلمة" خزائن" "ولفظ المال بالخزائن أليق ."فقد جاء على لسان نوح عليه السلام في هذا الموضع قوله" :وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله" " ... هود "31 :فناسب ذلك المال ههنا بخلاف المواضع الأخرى.
ومن ذلك قوله تعالى" :وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ" "النحل. "66 :وقوله" :وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ" "المؤمنون. "21 :
فقد قال في آية النحل" :نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ" "النحل "66 :وقال في آية المؤمنون" :نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا" "المؤمنون. "21 :وسبب ذلك أن الكلام في آية النحل على إسقاء اللبن من بطون الأنعام .واللبن لا يخرج من جميع الأنعام بل يخرج من قسم من الإناث .وأما في آية" المؤمنون "فالكلام على منافع الأنعام من لبن وغيره، فقد قال بعد قوله" :نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا" "المؤمنون" : "21 :وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ" "المؤمنون. "21 :
وهذه المنافع تعم جميع الأنعام ذكورها وإناثها صغارها وكبارها .فجاء بضمير القِلَّة وهو ضمير الذكور للأنعام التي يُستخلص منها اللبن، وهي أقل من عموم الأنعام، وجاء بضمير الكثرة وهو ضمير الإناث لعموم الأنعام .فلما كانت الأنعام في الآية الثانية أكثر جاء بالضمير الدال على الكثرة .وهذا جارٍ على وفق قاعدة التعبير في العربية التي تفيد أن المؤنث يُؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف الذكور، وذلك في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرها، وذلك نحو قوله تعالى" :وَقَالَ نِسْوَةٌ" "يوسف "30 :بتذكير الفعل" قال "، وقوله" :قَالَتِ الأعراب آمَنَّا" "لحجرات "14 :بتأنيث الفعل، فإن التذكير يدل على أن النسوة قلة بخلاف التأنيث، وهذه قاعدة معروفة لا نريد أن نطيل في شرحها وبيانها.
جاء في درة التنزيل في هاتين الآيتين : [أن الأنعام في سورة النحل وإن أطلق لفظ جمعها فإن المراد به بعضها، ألا ترى أن الدَّرَّ لا يكون لجميعها وأن اللبن لبعض إناثها فكأنه قال" :وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ" "النحل . "66 :ولهذا ذهب من ذهب إلى أنه رد إلى النعم لأنه يؤدي ما تؤديه الأنعام من المعنى .والمراد والله أعلم ما ذكرنا بالدلالة التي بينا.

وليس كذلك ذكرها في سورة المؤمنين لأنه قال" :نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ" "المؤمنون "22-21 :فأخبر عن النِّعم التي في أصناف النَّعَم إناثها وذكورها فلم يحتمل أن يراد بها البعض كما كان في الأول ذلك."ومن ذلك قوله تعالى" :وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً" "الفتح. "4 : وقوله" :وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح. "7 : فقد قال في الآية الأولى" :وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً" "الفتح "4 :وقال في الآية الثانية" :عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح . "7 :قيل :وسبب ذلك أن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين .إيماناً فقد قال قبلها" :هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إيمانا مَّعَ إيمانهم وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض" " ... الفتح "4 :فهذا موضع عِلْمٍ وحكمة فقال" :عَلِيماً حَكِيماً" "الفتح. "4 :

وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات فقد جاءت بعد قوله" :وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظآنين بالله ظَنَّ السوء عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً * وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض" "..الفتح "7-6 :فهذا موضع عِزَّةٍ وغَلَبة وحكم فقال" :عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح : . "7 وشبيه بهذا قوله تعالى" :فَأنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَان الله عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح. "19-18 :

فهذا في مقام النصر وأخذ الأموال والغنائم فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكم فقال" :عَزِيزاً حَكِيماً" "الفتح. "19 :

ومن ذلك قوله تعالى:" أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" "الروم. "37 :....وقوله" :أَوَلَمْ يعلموا أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" "الزمر. "52 :

فقد قال في آية الروم" :أَوَلَمْ يَرَوْاْ" "الروم "37 :وفي آية الزمر" أَوَلَمْ يعلموا" "الزمر : "52وذلك أن ألفاظ الرؤية والنظر في سورة الروم أكثر مما في سورة الزمر، وألفاظ العلم في الزمر أكثر مما في الروم، فقد وردت ألفاظ الرؤية والنظر في الروم سبع مرات .وفي الزمر ست مرات .ووردت ألفاظ العلم في الزمر إحدى عشرة مرة وفي الروم عشر مرات .فاستحقت الروم لفظ الرؤية والزمر لفظ العلم.

ثم انظر إلى طريقة أخرى في التعبير فقد جاء بفاقدي البصر في سورة الروم فقال" :وَمَآ أَنتَ بِهَادِ العمي عَن ضَلاَلَتِهِمْ" " ... الروم "53 :وجاء بفاقدي العلم في آية الزمر فقال" :قُلْ أَفَغَيْرَ الله تأمروني أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون" "الزمر. "64 :

ومن ذلك قوله تعالى: "وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ" "النمل. "87 :....وقوله" :وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ" "الزمر. "68 :.....فقد قال في النمل" :فَفَزِعَ" "النمل "87 :وفي الزمر" فَصَعِقَ" "الزمر "68 :، وإنما قال ذلك في الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله" :فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ" "الزمر "68 :فإن ذلك في مقابل الصعقة، في حين ختم آية النمل بقوله" :وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ" "النمل "87 :، وهو المناسب للفزع إذ معنى داخرين :صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه.

ثم انظر كيف قال بعد آية النمل" :مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ" "النمل "89 :فامنهم من الفزع الذي يصيب الخلائق يوم القيامة.

ثم انظر مرة أخرى كيف ناسب ختام السورة أولها وما ورد فيها من فزع في قصة موسى وذلك قوله تعالى" :فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ياموسى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون" "النمل. "10 :....وكيف ناسب ذكر الصعقة في الزمر قوله تعالى" :إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ" "الزمر "30 :وقوله" :الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى" " ... الزمر. "42 :...جاء في البرهان للكرماني أن سورة النمل خصت بقوله" :فَفَزِعَ" النمل" "87 :موافقة لقوله" :وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ" "النمل : 89" .وخصت الزمر بقوله" :فَصَعِقَ" "الزمر "68 :، موافقة لقوله" :وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ" "الزمر "30 :لأن معناه :مات.

ومن ذلك قوله تعالى:" ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" "الحج. "5 :

وقوله" :وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ واسجدوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ باليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" "فصلت-37 : 39" .....فقد قال في آية الحج" :هَامِدَةً" "الحج "5 :وفي آية فصلت" :خَاشِعَةً" "فصلت :

" "39وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في" هَامِدَةً" "الحج : "5و" خَاشِعَةً" "فصلت. "39 :
إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها" هامدة "ثم تهتز وتربوا وتُنبت من كل زوج بهيج.
وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة فإذا أُنزلَ عليها الماءُ اهتزت وربت .ثم لا يزيد على الاهتزام والإرباء هنا الإنبات والإخراج كما زاد هناك، لأنه لا محلَّ لهما في جو العبادة والسجود."
ومن ذكل قوله تعالى:" كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وشهدوا أَنَّ الرسول حَقٌّ " " ...آل عمران. "86 :...وقوله" :وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ ...
" "التوبة. "74 :.....فقد عبر في آية آل عمران بالإيمان وفي آية التوبة بالإسلام، وذلك لاختلاف حال من عني بهما" وقد ذكر المفسرون أن آية آل عمران نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري، وكان قد أسلم ثم ارتد ولحق بالكفار ثم ندم، فأرسل إلى قومه ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل له من توبة؟ فسألوا فنزلت الآية فكتبوا بها إليه فأسلم وحسن إسلامه .فكانت حاله حال إيمان ولم يكن في إسلامه أولاً ممن عرف بنفاق، ولا أنَّه أبطن خلاف ما ظهر منه من إسلامه، فكانت حاله حال إيمان وتصديق ولم يظهر خلافه وذلك هو الإيمان .فناسب وصفة بالإيمان وهو التصديق بالقلب.
أما آية التوبة فنزلت في الجُلاَس حين قال في غزوة تبوك :لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شَرٌّ من الحُمر .فنُمي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستدعاه فحلف ما قال .وكان منافقاً معروف النفاق يتظاهر بالإسلام ويبطن خلافه .فأنزل الله في قضيته" :يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ" "التوبة : "74فقيل هنا" :بعد إسلامهم "مناسبة للحال.
ومن ذلك قوله تعالى:" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأولين * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" "الحجر. "11-10 :.....وقوله" :وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأولين * وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" "الزخرف. "7-6 :.....فقال في آية الحجر" :من رسول "وقال في آية الزخرف" :من نبي "وذلك أنه" :لما قام تقدم في آية الزخرف لفظ" كم "الخبرية وهي للتكثير ناسب ذلك من يوحي إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل .فورد هنا ما يعم الصنفين عليهم السلام.
أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب التكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه عليه السلام وتسليته، فخصت بالتعيين باسم الرسالة تسلية له عن قولهم" :إنك

لمجنون "وبما جرى للرسل قبله عليه السلام من مثل ذلك .ومن البيّن أن موقع" رسول "هنا أمكن في تسليته عليه السلام .فجاء كل على ما يجب من المناسبة."
ومن ذلك قوله تعالى:"....الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ" " ... غافر. "8-7 :
وقوله" :والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم" "الشورى. "5 :....فقال في" غافر" "وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ" "غافر : "7وقال في الشورى" :وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض" "الشورى . "5 :وذلك لأسباب عدة منها:

١-أن آية غافر ذكر جماعة مخصوصة من الملائكة وهم حَمَلَةُ العرش ومن حوله، وآية الشورى ذكرت عموم الملائكة .فناسب أن تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من الناس وهم المؤمنون، وأن تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض.

٢- ثم لما ذكر في غافر صفة الإيمان في هؤلاء الملائكة فقال" ويؤمنون به "ناسب أن يذكر من اتصف بهذه الصفة من أهل الأرض.

٣- ثم إنّ قوله" :فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ" "غافر "7 :يفيد التخصيص ولا يفيد العموم، فناسب ذلك أن يخصوا المؤمنين بالذكر لا أن يذكروا عموم أهل الأرض، وأغلبهم لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.

٤- ثم إنهم لما سألوا ربهم أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات عدن، ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين، ناسب ذلك المؤمنين وإلا فليس من المناسب أن تسأل الجنة لكافر.

وأما آية الشورى فلم يرد فيها مثل ذلك، بل ذكر فيها عموم الملائكة فناسب أن يذكر عموم أهل الأرض، ولم يذكر صفة أخرى تُقَيِّدُ هذا العموم.

ثم إنه لما ختم الآية بقوله" :أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم" "الشورى "5 :ناسب ذكر هاتين الصفتين وقَصْرهما وتعريفهما وتأكديهما ذكر العموم.

فانظر فخامة هذا التعبير وجلاله.

ومنه قوله تعالى:"لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ" " ... آل عمران. "164 :
وقوله" :لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ" " ... الجمعة. "2 :
فقيل في الأولى" :من أنفسهم "وفي الثانية" :منهم "وذلك" أن قولك" :فلان من أنفس القوم "أوقع في القرب والخصوص من قولك" فلان منهم . "فإن هذا قد يراد للنوعية فلا

يختص لتقريب المنزلة والشرف إلا بقرينة .أما" من أنفسهم "فأخصُّ فلا يفتقر إلى قرينه .ولذلك حيث ورد قصد التعريف بعظم النعمة به صلى الله عليه وسلم وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم قال تعالى" :لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ" " ... التوبة "128 :وقال تعالى فيمن كان على الندّ من حال المؤمنين المستجيبين" :وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ" "النحل "113 :فتأمل موقع قوله هنا" :منهم "لما قصد أنه إنعام عليم لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة للنجاة فقيل هنا" :منهم... "

ولما كان لفظ الأميين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب ممن ليس من أهل الكتاب قيل" منهم "فناسبت هذه الآية بما فيها من الشياع الذي مهدناه عموم الأميين من العرب ممن أسلم وممن لم يسلم .ولما قال في آية آل عمران" :لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين" "آل عمران "164 :فَخَصَّ مَنْ أسلمَ ناسب ذلك قوله" :من أنفسهم "بخصوصه كما تقدم .ولم يكن العكس ليناسب."

ومن هذا الباب قوله تعالى:"يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ" " ... المائدة. "13 :
وقوله" :يُحَرِّفُونَ الكلم مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ" " ... المائدة. "41 :....فقد قال في الآية الأولى" :عن مواضعه "وفي الثانية" :من بعد مواضعة "وذلك أن الكلام في الآية الأولى على أوائل اليهود الذين حرفوا التوراة، وفي الثانية على اليهود الذين كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً .فقد قال في الآية الأولى" :وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً * ... فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ" " ... المائدة. "13-12 :....وقال في الآية الثانية" :وَمِنَ الذين هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكلم مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ" " ... المائدة "41 :فجاء في الثانية بكلمة" بعد "لأنها" قد تكون لما تأخر عن زمانه بأزمنة كثيرة وبزمن واحد و" عن "لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه."....وجاء في الاولى بـ" عن "لأن الزمن ملاصق، فوضع كل لفظ في المكان الذي هو أليق به.

ومن بديع ذلك وطريقه قوله تعالى:" فَقَدْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ" "الأنعام. "5 :....وقوله" :فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" "الشعراء. "6 :

فقد ذكر" سوف "في آية الأنعام فقال" :فسوف يأتيهم أنباء " ... وذكر السين في آية الشعراء فقال" :فسيأتيهم. "وذكر" الحق "في آية الأنعام فقال" :فقد كَذَّبوا بالحق "، ولم يذكره في آية الشعراء .ولكلٍّ من ذلك سببٌ يدعو إليه.

أما ذكر" الحق "في آية الأنعام فإنه تردّد في هذه السورة اثنتي عشر مرة ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء فناسب ذكرها في آية الأنعام دون آية الشعراء إذ هو المناسب للجو التعبيري في هذه السورة.

وأما ذكر" سوف "في الأنعام فيفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الشعراء وذلك أن" سوف "أبعد في الاستقبال من السين .ولوضع كل من سوف والسين موضعها عدة أسباب منها:

١- أن الَمْعنِيين في سورة الشعراء هم قوم الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة يدلك على ذلك قوله تعالى" :لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ" "الشعراء. "4-3 :

وأما ما ورد في سورة الأنعام فلعموم الكافرين" ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ" "الأنعام: "1فناسب ذلك تعجيل الوعيد لمن هم أقرب إليه من الكفار الذين حاربوا الرسول وكذبوه قبل الأباعد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد.

علاوة على ما في السورة من تسلية للرسول فقد قال له :لعلك تقتل نفسك لعدم إيمانهم فَهَوِّنْ عليك الأمر، فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد وليس الأمر كذلك في سورة الأنعام.

٢- ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وعقوباتهم في الدنيا فناسب ذلك مجيء السين إشعاراً بتعجيل العقوبة لهؤلاء القوم كما عجل للأقوام البائدة بخلاف ما في الأنعام إذ ليس فيها شيء من ذلك.

٣- ثم إن سورة الأنعام مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات بخلاف سورة الشعراء:

أ -فقد أمر الرسول في الأنعام أن يقول إنه ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب" قُلْ إِنِّي على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" "الأنعام. "57 :

"قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمر بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ والله أَعْلَمُ بالظالمين" "الأنعام . "58 :فناسب عدم الاستعجال ذكر" سوف "هنا.

ب -ورد في الأنعام قوله" :قُلْ ياقوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار" "الأنعام "135 :فذكر" سوف "ولم يذكر السين وهو الملائم للجو العام للسورة.

ج -ثم انظر كيف قال في موطن آخر في سورة الأنعام" :كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ" "الأنعام "12 :فقد ذكر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا ينافي تعجيل العقوبة، ثم قال" :ليجمعنكم إلى يوم القيامة . "وهذا يفيد تأخير العقوبة إلى يوم القيامة.

فناسب ذلك كله وضع" سوف "دون السين في الأنعام.

د -قال في ختام سورة الأنعام" :إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" "الأنعام : "165فلم يؤكد سرعة العقاب كما أكد المغفرة والرحمة، فقد أكدهما بإنّ واللام، وأكد سرعة العقاب بإنّ وحدها، كما أنه لم يؤكدها في سورة الأعراف مثلاً فقد قال هناك" :إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" "الأعراف "167 :فأكد سرعة العقاب بإنّ واللام، وذلك لما كان المواطن في الأعراف تعجيل العقوبات في الدنيا أكد سرعة العقاب ولما لم يكن الأمر كذلك في الأنعام لم يؤكد سرعته وهذا ينافي تعجيل العقوبة.

هـ -ثم انظر كيف قال تعالى في مكان آخر من سورة الأنعام" :قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين" "الأنعام "11 :فقد جاء بـ" ثم "الدالة على التراخي والبعد بخلاف قوله تعالى في سورة أخرى" :قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين" "النمل "69 :فقد جاء فيها بالفاء الدالة على التعقيب.

ووضع" ثم "في آية الأنعام هذه علاوة على أنه من المناسب للجو العام للسورة يقتضيها السياق أيضاً من عدة نواح، بخلاف سياق آيات النمل الذي يقتضي الفاء .فقد ختمت آية الأنعام بقوله تعالى" :ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين" "الأنعام "11 :وختمت آية النمل بقوله" :فانظروا كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين" "النمل "69 :، والمُكَذِّبُ قد تُعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم فإن المجرم ينبغي أن يُؤخذَ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء في" المكذبين "بثم ومع المجرمين بالفاء .فاقتضى ختام كل آية الحرف الذي اختير لها.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن التكذيب والسخرية في النمل أكبر مما في الأنعام فقد جاءت آية النمل بعد قوله تعالى" :وَقَالَ الذين كفروا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هاذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين" "النمل : 67-68" .

ثم جاء بالآية" :قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا" " ... النمل. "69 :

ثم صبَّرَ الرسول بعدها بقوله" :وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" "النمل "70 :فاقتضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.

ثم انظر من جهة أخرى إلى قوله تعالى بعد آية النمل" :قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ" "النمل "72 :بخلاف قوله تعالى في الأنعام" :مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" "الأنعام . "57 :فناسب كل ذلك ذكر" ثم "في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النمل .لقد تبين من كل ذلك أن سورة الأنعام مبنية على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر" سوف "فيها بخلاف آية الشعراء.

فانظر هداك الله أي تعبير هذا؟

ومن هذا الباب الاختلاف في التعريف والتنكير وذلك نحو قوله تعالى" :وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق" "البقرة. "61 :

وقوله ... " :وَيَقْتُلُونَ الأنبيآء بِغَيْرِ حَقٍّ" " ... آل عمران. "112 :

فَعرَّفَ" الحق "في الأولى ونَكَّرهُ في الثانية، وذلك أن كلمة" الحق "المعرّفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حَقَّ يدعو إلى قتل ولا غيره .أي :ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم .فكلمة" حق "ههنا نكرة عامة، وكلمة" الحق "معرّفة معلومة .والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لا سبب يدعو إلى القتل ولا غيره .فمقام التشنيع والذم ههنا أكبر منه ثَمَّ وكلاهما شنيع وذميم.

فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في ذمهم وإليك سياق كل من الآيتين:

قال تعالى ... " :وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ الله ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ذلك بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ" "البقرة : . "61فعرّف" الحق "فيها.

وقال" :ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ الله وَحَبْلٍ مِّنَ الناس وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأنبيآء بِغَيْرِ حَقٍّ ذلك بِمَا عَصَوْاْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ" "آل عمران "112 :فَنَكَّرَ" الحق. "

ومن الواضح أن موطن الذم والتشنيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة يدل على ذلك أمور منها:

أنه في سورة البقرة جمع" الذلة "و" المسكنة "وأما في آي آل عمران فقد أكد وكرر وعمم فقال" :ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا" "آل عمران "112 :فجعلها عامة بقوله" :أينما ثقفوا "ثم قال" :وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة" "آل عمران "112 :فأعاد الفعل

وحرف الجر للزيادة في التوكيد فإن قولك" :أنهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء "آكد مِنْ قولك" أنهاك عن الكبر والرياء. "
ثم إنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلة فقال" :ويقتلون النبيين "وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال" :ويقتلون الأنبياء "أي :يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حق.
فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد ومن هنا يتبين أن التعريف في آية البقرة أليق والتنكير في آية آل عمران أليق.
ومن ذلك قوله تعالى:" والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ بالمعروف ... " "البقرة "234 :فعرّف" المعروف. "
وقال في أخرى:" والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الحول غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ... " "البقرة . "240 :فنكَّرَهُ.
وذكر أن المقصود بـ" المعروف "ههنا الزواج خاصة، وأما غير المعرّف فيراد به ما لمي يُستنكر فِعْلُه من خروج أو تزيّن ونحوه.
جاء في" درة التنزيل" : "للسائل أن يسأل فيقول :ما الفائدة التي أوجبت اختصاص المكان الأول بالتعريف بالباء فقال" :بالمعروف "والمكان الثاني بالتنكير ولفظة" من. "
ولجواب عن ذلك أن يقال :إنَّ الأول تعلق بقوله" :والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ بالمعروف" " ... البقرة . "234 :أي :لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهم بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده.
والثاني :المراد به فلاح جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود .فالمعروف ههنا فعل من أفعالهن يُعرف في الدين جوازه وهوبعض ما لهن أن يفعلنه .ولهذا المعنى خُصَّ بلفظ" من "ونُكِّرَ،
فجاء" المعروف "في الأول مُعَرَّفَ اللفظ لما أشرت إليه، وهو أن يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك، وهو الوجه الذي دل الله عليه وأبانه، فعرف إذ كان معرفة مقصوداً نحوه وكذلك خُصَّ بالباء وهي للإلصاق.
والثاني كان وجهاً من الوجوه التي لهن أن ياتينه فأُخرجَ مخرجَ النكرة لذلك."

ومما يدل على ذلك أيضاً أمور منها أن الآية الأولى ذكر فيها قوله" :يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً" "البقرة "234 :فقوله" :يتربصن "معناه :يُصَبِّرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها، ثم جاء بالباء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى" :هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ... " "البقرة. "187 :

وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربص ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها.

ومن ناحية أخرى أنه عَرَّفَ" المعروف "المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف، ونَكَّرَ الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين .بل كل ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك.

ومثل هذا استعماله للفظي" الكذب "و" كذب "بالتعريف والتنكير،

فاستعمل" الكذب "بالتعريف لما هو خاص بأمر معين .و" كذباً "بالتنكير لما هو عام.

قال تعالى:

"كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لبني إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التوراة قُلْ فَأْتُواْ بالتوراة فاتلوها إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افترى عَلَى الله الكذب مِن بَعْدِ ذَلِكَ فأولائك هُمُ الظالمون" "آل عمران. "94-93 :

فجاء بالكذب ههنا مُعَرَّفاً لأنه مخصص بهذه المسألة أي :مسألة الطعام .ومثله قوله تعالى:" قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغني لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بهاذآ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ" "يونس. "69-68 :

فعرف الكذب لأنه مخصص بمسألة معينة وهي زعمهم اتخاذ الله ولداً سبحانه .ونحوه قوله تعالى:" مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ولاكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ" "المائدة. "103 :

فاستعمال الكذب معرفاً لأنه مخصص بمسألة الأنعام.

في حين قال" :وهاذا كتاب أنزلناه مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا والذين يُؤْمِنُونَ بالأخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنَزلَ الله" "الأنعام. "93-92 :

فالكذب ههنا عام ولم يخصص بمسألة معينة.

ونحوه قوله تعالى" :قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بآياته إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المجرمون" "يونس. "17-16 :

وقوله" :أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً فَإِن يَشَإِ الله يَخْتِمْ على قَلْبِكَ وَيَمْحُ الله الباطل ... " "الشورى. "24 :

وقوله" :إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افترى على الله كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ" "المؤمنون. "38 :

فأنت ترى أنه استعمال المعرف لأمر مخصص، في حين استعمل المنكّر لما هو عام.

ومن هذا الباب قوله تعالى:" ... فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين" "المؤمنون . "41 :

بتعريف" القوم. "....وقوله ... " :فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ" "المؤمنون . "44 :

بتنكر" قوم. " وذلك لأن الأولى في قوم معينين وهم قوم صالح فعرّفهم بدليل قوله تعالى" :فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة بالحق" " ... المؤمنون. "41 :

وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين بدليل قوله تعالى" :ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ" "لمؤمنون "42 :وقوله" :ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ" "المؤمنون. "44 :

فخصهم بالنكرة.

ومنه قوله تعالى" :وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" "الأعراف. "200 :...وقوله" :وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم" "فصلت. "36 :

فقد وردت الصفتان في الأعراف منكَّرتين" سميع عليم "ووردتا في" فصلت "معرّفتين وزيد قبلهما ضمير الفصل.

وذلك أن ورد قبل آية الأعراف وصف آلهتهم بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك ولا تقدر على شيء مما يدل على أنها ليس فيها شيء من الحياة قال تعالى" :أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلآ أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامتون * إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادعوهم فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ" "الأعراف. "195-191 :

فوصف الله نفسه بالسمع والعلم في مقابل آلهتهم التي لا تمسع ولا تعي .وأما آية فصلت فقد تقدم قبلها قوله" :ولاكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ" "فصلت. "22 :

فأثبتوا لله سبحانه قليلَ العلم ونفوا عنه كثيره، فاقتضى ذلك أن يبين لهم أنه هو المختص بالعلم الكامل والسمع الكامل، فجاء بالصفتين معرّفتين للدلالة على الكمال في الوصف، وجاء بضمير الفصل للدلالة على قصر هاتين الصفتين عليه سبحانه وبيان أن ما عداه لا يعلم ولا يسمع إذا ما قيس بعلمه وسمعه .ولو جاء بهما نكرتين لم يفيدا هذا المعنى، إذ كل مَنْ عنده سمع وعلم يصح أن يوصف بأنه سميع عليم.

جاء في" ملاك التأويل" : "إن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي وُبِّخُوا بعبادتها في قوله في موضع آخر" :أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ" "الصافات "95 :فوصف هنا بأنها لا تخلق شيئاً ولا يستطيعون لهم نصراً" وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لاَ يَسْمَعُواْ وتراهم يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ" "الأعراف "198 :فنفى عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة البطش بقوله" :أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ" "الأعراف. "195 :

ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء فضلاً عما فوق ذلك، فوردت الصفتان بقوله" :سميع عليم "مَوْرداً لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبدوه من دونه مما قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مُدّعٍ، فيستدعي ذلك التهم مفهوماً بنفيه فجاء على ما يجب.

أما آية السجدة فتقدم قبلها قوله تعالى" :ولاكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ" "فصلت "22 :وقوله" :وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ" "فصلت "25 :وقوله تعالى" :أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس" "فصلت : "29فحصل من هذا أن مُضِلّهم إنما كان من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالمسع والبصر ممن ينسب إليه علم، بخلاف المتقدم ذكره في الأعراف.

فلما تقدم في سورة السجدة ما يظهر منه الغناء ويمكن أن يسمع ويبصر ويعلم، ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفي ذلك من غير الموصوف بهما تعالى .ثم أكد ذلك بضمير الفصل المتقضي التخصيص ليَقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بـ" دليل الخطاب "، فصار الكلام في قوة أن لو قيل :الله السميع العليم لا غير."

ومنه الاختلاف في التعريف، فقد يُعَرِّف اللفظةَ مرة بأل ومرة بالإضافة وذلك نحو قوله تعالى:

"الله يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" "البقرة. "15 :

وقوله" :وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ" "الأعراف. "202 :

فقد عرف" الطغيان "بالإضافة وعن" الغيّ "بأل، وذلك أنه أسند المد في آية البقرة إلى الله تعالى فقال" :وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" "البقرة "15 :فالله إنما يمدهم في طغيانهم هم، ولا يمدهم في طغيان جديد لم يفعلوه.
في حين أسند المد في آية الأعراف إلى الشياطين فذكر أنهم يمدونهم في غيٍّ جديد لا في غيهم وحده، فهم يضيفون غيّاً إلى غيهم.
جاء في الكشاف: فإن قلت :أي نكتة في إضافته إليهم؟
قلت :فيها أن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم وأن الله بريء منه..
ومصداق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله" :وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي" "الأعراف. "202 :
ومن ذلك الاختلاف في استعمال حروف العطف.
فهو يستعمل حروف العطف في غاية الدقة والجمال، فمن المعلوم أن الواو تأتي لمطلق الجمع، وأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، و" ثم "تفيد الترتيب والتراخي.
ومعنى الترتيب أن المذكور أولاً هو الذي حدث أولاً والمذكور بعده هو الذي حدث بعده .ومعنى التعقيب أنه حصل بعده، بلا مهلة، فإذا قلت : [جاء محمد فخالد] كان معناه أن محمداً حضر قبل خالد وأن خالداً حضر بعده بلا مهلة.
ومعنى التراخي أن بينهما مهلة فقولك" :حضر محمد ثم خالد "يفيد أن حضور محمد قبل حضور خالد وأن بينهما مهلة وليس كالفاء .ومهلة كل شيء بحسبه فإذا قلت" :تزوج أحمد فولد له "كان معناه أنه لم يكن بين الزواج والولادة إلا مدة الحمل أما إذا قلت:[تزوج أحمد ثم ولده له] كان معنى ذلك أن الحمل تراخى عن الزواج.
وأما الواو فكما ذكرنا لمطلق الجمع، أي :ليست للترتيب وإنما هي لمجرد الاشتراك في الحدث، فإذا قلت:[حضر أحمد وخالد] كان من الممكن أن يكون حضر أحمد قبل خالد أو خالد قبل أحمد أو حضرا معاً .وقد يكون بينهما مهلة أو لا يكون بينهم مهلة .وليس معنى ذلك أنها لا تأتي للترتيب البتة، بل قد تأتي للترتيب وغيره، فهي ليست نصاً في الترتيب ولا في غيره.
وقد استعمل القرآن ذلك ألطف استعمال وأدقه.
فمن ذلك قوله تعالى" :ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ" "عبس "22-21 :فجاء في" أقبره "بالفاء، لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة وجاء بعده بـ" ثم "لأن النشور يتأخر عن الدفن.

ومن ذلك قوله تعالى" :كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ" "البقرة. "28 :

فجاء بالإحياء الأول بالفاء، وما بعده بثم ذلك" لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخي وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء .والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت."

وشبيه بذاك قوله تعالى" :الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين" "الشعراء. "82-78 :

فقد عطف في الآية الأولى بالفاء لتعقب بلا مهلة الهداية للخلق ... وكان العطف في الآية الرابعة بـ" ثم "لتراخي الإحياء عن الإماتة."

وأما الفاء في قوله" :فهو يَشفينِ "فهي الرابطة للجواب وليست عاطفة .ونحو ذلك قوله تعالى" :وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ" "الروم. "20 :

وقوله" :وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ" "الروم. "25 :

"قال ههنا" :إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ" "الروم "25 :وقال في خقل الإنسان أولاً" :ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ" "الروم "20 :فنقول :هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا :ثم."

وبعد هذه المقدمة في معاني حروف العطف، نعود إلى التشابه والاختلاف فيها .فمن ذلك قوله تعالى:

"أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى" "طه. "128 :

وقوله" :أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ القرون يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ" "السجدة. "26 :

فقال في آية" طه" : "أفلم "بالفاء، وقال في آية السجدة" :أولم "بالواو لأنه ذكر في سورة طه العقوبات في الدنيا علاوة على عقوبة الآخرة فقال" :وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى" "طه. "124 :

وقال" :وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى" "طه: "127فذكر المعيشة الضنك في الدنيا ثم قال" :ونحشره يوم القيامة أعمى . "وقال" :وكذلك نجزي من أسرف " ... والمقصود به في الدنيا، ثم قال بعده" :ولعذاب الآخرة أشد وأبقى "بخلاف ما في سورة السجدة فإنه أَخَّرَ الأمرَ إلى يوم

القيامة، فقد قال قبل هذه الآية" :إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" "السجدة . "25 :فجاء بالفاء في" طه "لأنها تفيد التعقيب وجاء الواو في السجدة.

ومن الاختلاف في هاتين الآيتين في غير العطف قوله تعالى في السجدة" :من قبلهم من القرون "وفي طه" :قبلهم من القرون "بدون" من "وذلك أنه ذكر في سورة السجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه فقال" :وقالوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ" "السجدة. "11-10 :

فبدأ بهلاك من هو أقرب إليه فجاء بـ" من "الدالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في" طه "فإنه ذكر قوم موسى وأحوالهم، وهم قبل الرسول بمدة طويلة وليسوا من قبله.

ثم انظر كيف ختم آية السجدة بقوله" :أفلا يسمعون "وذلك لأنهم يسمعون بماحصل للأقرب إليهم، فإنّ خاتمة الأقرب مما يؤخذ عن طريق السماع بخلاف الأقدمين ..وهذه إشارات تهديك إلى خاتمة آية" طه "لتنظر جلالة هذا الكلام وارتفاعه.

ومن ذلك قوله تعالى" :وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ... " "هود. "58 :

وقوله" :وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا" " ... هود. "94 :

فجاء في هاتين القصتين بالواو في حين قال:

"فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا" " ... هود. "66 :

وقال في قصة لوط" :فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا" ". ... هود. "82 :

بالفاء وسبب ذلك أن" العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد .فإن في قصة هود" :فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ... " "هود. "57 :

وفي قصة شعيب" :سَوْفَ تَعْلَمُونَ" "هود "93 :والتخويف قارنه التسويف فجاء بالواو المهملة.

وفي قصة صالح ولوط وقع العذاب عقيب الوعيد، فإن في قصة صالح" :تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ" "هود "65 :وفي قصة لوط" :أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ" "هود . "81 :

فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب."

ومن ذلك قوله تعالى:" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيءَاذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً" "الكهف. "57 :

وقوله" :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ" "السجدة. "22 :

قال في آية" الكهف" : "فَأَعْرَضَ عَنْهَا" "الكهف "57 :وقال في آية السجدة" :ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ" "السجدة "22 :وذلك أن وقوع الإعراض في آية الكهف أسرع منه في آية السجدة، إذ هو واقع في عقب التذكير، يدل على ذلك قوله تعالى في آية الكهف" :وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ" "الكهف "57 :وقوله" :إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيءَاذَانِهِمْ وَقْراً" "الكهف "57 :وهذا الوصف مما يسرع في إعراضهم ثم قال فيما بعد" :وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبداً" "الكهف "57 :فذكر صَمَمهم وبُعْدَهم عن الهدى.

وليس الأمر كذلك في آية السجدة، فناسب ذلك ذكر الفاء في آية الكهف لدلالتها على الترتيب والتعقيب و" ثم "في آية السجدة لدلالتها على التراخي.

من ناحية، ومن ناحية ثانية أن الفاء قد تدل على السبب فجاء بالفاء للدلالة على أن التذكير كأنه كان سبباً لإعراضهم وزيادة رجسهم كما قال تعالى" :وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ" "التوبة. "125 :

فأنت ترى أن آية الكهف تقتضي الفاء من أكثر من جهة بخلاف آية السجدة.

ومن ذلك قوله تعالى:" وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا" "الأعراف. "82 :

وقوله" :فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا" "النمل. "56 :

وهاتان الآيتان في قوم لوط، فقد جاء في آية الأعراف بالواو فقال" :وما كان جواب قومه "، وجاء في آية النمل بالفاء فقال" :فما كان جواب قومه "مما يدل على أن الجواب كان أسرع منه في آية الأعراف. وسياق كل من الآيتين يقتضي ما ذكر.

فقد قال في الأعراف" :وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" "الأعراف-80 : 82"....وقال في سورة النمل" :وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" "النمل. "54-56 :

فأنت ترى أن مقام الإنكار والتقريع في سورة النمل أشد منه في سورة الأعراف، يدل على ذلك أمور منها:

١- قوله تعالى في الأعراف" :إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال" "الأعراف "81 :وفي النمل" :أإنكم "بإخال همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتوبيخ.

٢- قوله في الأعراف" :بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ" "الأعراف "81 :وفي النمل" :بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" "النمل "55 :والوصف بالجهل فيه زيادة تقريع، لأن نسبة الإنسان إلى الإسراف أهون من نسبته إلى الجهل، فإنك إذا قلت لشخص" :أنت مسرف في هذا الأمر "كان أهون عليه من قولك" :أنت جاهل. "

ولذلك بادروا بالرد عليه بسرعة ولم يتريثوا لأنه أغاظهم في الكلام أكثر مما في الأعراف فجاء بالفاء.

ومما يدل على شدة غيظهم ذكر اسمه صراحة في النمل" أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ" "النمل "56 :بخلاف ما في الأعراف فقد جاؤوا بالضمير" :أَخْرِجُوهُمْ" "الأعراف. "82 :

وقد تقول :وهل هناك تناقض بين القولين والقصة واحدة؟

والجواب :لا، وذلك لأن الواو لا تناقض الفاء، فإن الواو لمطلق الجمع كما ذكرنا، فقد يكون ما بعدها واقعاً في عقب ما قبلها وقد يكون متأخراً عنه وقد يكون متقدماً عليه .

وأما الفاء فتفيد الترتيب فهي تفيد أحد معاني الواو .فذكر معنى الترتيب والتعقيب في النمل لأن الموطن يقتضيه، وأطلق ذلك في الأعراف لأن الموطن لا يقتضي التعقيب .

وهذا من أعجب الكلام وأدقه.

ويمكن أن يقال أيضاً :إن النصيحة تكررت من لوط في أزمنة مختلفة وبأساليب مختلفة، فيمكن أنه قال بعضها بصيغة أشد من الأخرى، وذلك أنه كلما تكررت الدعوة وتكررت النصيحة كان ذلك مدعاة إلى المبالغة في القول والنصيحة .وكل ذلك جائز والله أعلم.

ومن ذلك التشابه والاختلاف في حروف النفي وذلك نحو قوله تعالى" :وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين" "الجمعة. "7 :

وقوله" :وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين" "البقرة. "95 :

فنفى التمني في الآية الأولى بـ" لا "فقال" :وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ" "الجمعة "7 :ونفاه في الثانية بـ" لن "فقال" :وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ" "البقرة "95 :وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

قال تعالى" :قُلْ ياأيها الذين هادوا إِن زَعمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين" "الجمعة-6 : 7" .

وقال في البقرة" :قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين" "البقرة. "95-94 :

وأنت ترى الفرق وضاحاً بين السياقين، فإن الكلام في الآية الثانية على الآخرة" قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة" ... البقرة "94 :والدار الآخرة استقبال فنفى بـ" لن "إذ هو حرف خاص بالاستقبال.

وأما الكلام في الآية الأولى فهو عام لا يختص بزمن دون زمن" :إِن زَعمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ بِلَّهِ مِن دُونِ الناس" "الجمعة "6 :فها أمر مطلق فنفى بـ" لا "وهو حرف يفيد الإطلاق والعموم.

ومن ناحية أخرى أنه لما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً غير مقيد بزمن نفاه بـ" لا "التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف، ولما كان الزمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ" لن "التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة، وهو تناظر فني جميل.

وقد مر في باب التوكيد في التشابه والاختلاف في حروف النفي نحو قوله تعالى" :مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا" "الجاثية "24 :وقوله" :إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" "المؤمنون. "37 :

وقوله" :وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ" "الأحقاف "9 :وقوله" :إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ" "الشعراء : "115وغيره ما يغني عن إعادة ذكره.

ومن ذلك استعمال حروف الجر فقد استعملها استعمالاً لطيفاً بديعاً .فقد يعدل من حرف إلى آخر، أو يستعمل حرفاً مرة ثم يستعمل حرفاً آخر في موضع يبدو شبيهاً بالأول، وغير ذلك من الفنون التعبيرية لسبب يدعو إلى وضع كل حرف الموضع الذي وضعه.

فمن ذلك قوله تعالى في وصف المؤمنين:

"مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم" "المائدة٥٤.....

"فعدّى" أذلّة "جمع ذليل بـ" على "والأصل أن يعدى باللام لانه يقال" :هو ذليل له "ولا يقال" :ذليل عليه "وقد عدل عن التعدية باللام إلى التعدية بـ" على "لأن المعنى يقتضي ذاك، إذ لو عداه باللام لكان ذماً لا مدحاً .فقولك" :وهو ذليل له "يفيد الذم، وهو ههنا في مقام المدح، فجاء بـ" على "للإشعار بالذلة المستعلية وللدلالة على خفض الجناح كما قال تعالى" :واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ" "الحجر "88 :أي :هم يوطئون أكنافهم ويتواضعون مع علو جانبهم وارتفاع مكانتهم، فجاء بـ" على "للإشعار بالعلو بخلاف ما لو قال" أذلّة للمؤمنين. "

جاء في الكشاف:[فإن قلت :هلا قيل :أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟

قلت :فيه وجهان:

أحدهما :أن يُضَمِّنَ الذلَّ معنى الحُنُوِّ والعطف كأنه قيل :عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.
والثاني :أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم.]
ومن ذلك قوله تعالى:"وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" "سبأ "24 :فاستعمل مع الهداية حرف الاستعلاء" على "ومع الضلال" في "وذلك لأن من كان على الهدى كأنه مستعلٍ على الحق متمكن منه متثبت مما هو فيه، بخلاف من كان في الضلالة إذ هو كأنه ساقط فيها .والساقط في الشيء غير متمكن من نفسه، ألا ترى أن الواقف على الطريق ليس كالساقط في اللجة؟ فالأول متمكن من نفسه بخلاف الآخر، ولذا جاء مع الهدى بحرف الاستعلاء ومع الضلال بفي قال تعالى" :أولائك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ" "البقرة "5 :وقال" :إِنَّكَ عَلَى الحق المبين" "النمل "79 :فاستعمل للهدى" على "في حين قال" :فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ" "المؤمنون :
"54وقال" :فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ" "التوبة "45 :وقال" :وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" "الأعراف "186 :وقال" :قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمان مَدّاً" "مريم "75 :أي :ساقطاً فيها.
جاء في الكشاف في قوله تعالى" وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" "سبأ :
" 24...فإن قلت :كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق
والضلال؟ قلت :لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه.]
وجاء في التفسير القيم في قوله تعالى" :أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ" "البقرة" : "5 :قيل : في أداة" على "سر لطيف وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى .
وهو حق .كما قال في حق المؤمنين" :أولائك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ" "البقرة "5 :وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم" :فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين" "النمل "79 :والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق ودينه حق .فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى .فكان في أداة" على "على هذا المعنى ما ليس في أداة" إلى "فتأمله فإنه سر بديع.
فإن قلت :فما الفائدة في ذكر" على "في ذلك أيضاً؟ وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟
قلت :لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه فكان الإتيان بأداة" على "ما يدل على علوه وثبوته واستقامته .وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة" في "الدال على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه كقوله

تعالى" :فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ" "التوبة "45 :وقوله" :والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظلمات" "الأنعام "39 :وقوله" :فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ" "المؤمنون : "54وقوله" :وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ" "هود. "110 :

وتأمل قوله تعالى" :وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ" "سبأ "24 :فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل السافلين."

ومن طريف استعمال حرف الجر قوله تعالى" :وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" "المطفيين. "3-1 :

قيل :إنّ" على "هنا بمعنى" من . "وقيل :بل هو متضمن معنى التسلط على الناس والتحكم، أي :تسلطوا عليهم بالاكتيال.

والظاهر أنه هو الصواب لأن هناك فرقاً بين قولك" :اكتال منه "و" اكتال عليه . " فـ" اكتال منه "لا يفيد أنه ظلمه حقه وهضمه ماله بخلاف" اكتال عليه "، فإن فيه معنى التسلط والاستعلاء وهذا من المطففين .والمطففون كما بَيَّنهم القرآن إذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر من حقهم، وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم، ففيه إذن معنى التحكم والجور والظلم، وهو أبلغ من" من "وليست بمعنى" من "ولا تفيد" من "هذا المعنى.

ثم انظر إلى التعبير اللطيف الآخر بعده وهو قوله" :وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" "المطففين "3 :ولم يقل" :كالوا لهم "أو" وزنوا لهم "وكلاهما جائز، ولكن في حذف اللام معنى لا يؤديه ذكره، قالوا :وذلك أن اللام تفيد الاستحقاق وهم لم يعطوهم حقهم، فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة إلى أنهم منعوهم حقوقهم.

ومن لطيف حذف حرف الجر قوله تعالى:" وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ" "النساء. "127 : فمن المعلوم أنه لا يجوز حذف حرف الجر إلا إذا أمن اللبس وتعين المقصود، فلا يقال" :رغبت زيداً "لأنه لا يدرى المقصود أهو" رغبت في زيد "أم" رغبت عنه "أم" رغبت إليه "ولكنه هنا حذف حرف الجر مع أنه لم يتعين أهو" في "أم" عن "وذلك لأنه يراد معنى الحرفين معاً .فالحكم واحد في الرغبة فيهن أو عنهن .وهذا في يتامى النساء إذ يحتمل أن يرغب فيهن لجمالهن أو يرغب عهن لدمامتهن، والحكم واحد في الحالتين فلو قال" :في "لظن أنه يراد في حالة الرغبة هذه فقط دون الأخرى .ولو قيل" :عن "لظن أنه يراد في حالة العزوف فقط، فلما حذف عرف أن المقصود جميع أنواع الرغبة عنهن أو فيهن فأطلق لإطلاق الرغبة، وهذا تعبير عظيم جليل جاء في" الكشاف "في هذه الآية" :يحتمل في" أَن تَنكِحُوهُنَّ" "النساء : "127لجمالهن وعن" أَن تَنكِحُوهُنَّ" "النساء "127 :لدمامتهن."

وما جاء في التشابه والاختلاف في حروف الجر قوله تعالى:
"قولوا آمَنَّا بالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَآ أُوتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" "البقرة. "136 :
وقوله" :قُلْ آمَنَّا بالله وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ على إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَا أُوتِيَ موسى وعيسى والنبيون مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" "آل عمران. "84 :
فقال في آية البقرة" :وما أنزل إلينا "وقال في آل عمران" :وما أنزل علينا. "
جاء في" درة التنزيل" : "للسائل أن يسأل عن موضعين من هاتين الآيتين :أحدهما قوله" :أنزل إلينا "في الأولى و" علينا "في الثانية.
والموضع الثاني :تكرار" أوتي "في الأولى وتركها في الثانية...
وشرح ذلك أن" على "موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ومجيئه من علو.
و" إلى "المنتهى ... فقوله تعالى" قولوا آمَنَّا بالله" "البقرة "136 :اختيرت فيها" إلى "لأنها مصدرة بخطاب المسلمين فوجب أن يختار له" إلى ... "فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم .فلما كان" قولوا "خطاباً لغير الأنبياء وكان لأممهم كان اختيار" إلى "أولى من اختيار" على. "
ولما كانت سورة آل عمران "قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله" :قُلْ آمَنَّا بالله وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا" "آل عمران "84 :كانت" على "أَحقَّ بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه...
وما الموضع الثاني الذي أعيد فيه لفظه" أوتي "من سورة البقرة ولم يعد فيها بإزائها من سورة آل عمران، فالجواب عنه أن يقال :إنما اختص هناك لأن العشر التي فيها مصدرة بقوله" :وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ" "آل عمران : "81فقدم ذكر إتياء الكتاب، واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد."
ونقول تعليقاً على تعليله تكرار لفظ" أوتي "في البقرة دون آل عمران.
إنّ تكرار لفظ" أوتي "في البقرة يقتضيه التعبير لأكثر من سبب.
من ذلك :أن الآية في سورة البقرة جاءت في سياق ذكر عدد من الأنبياء وأخبارهم مثل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبنيه وغيرهم من الأنبياء، فلما جرى ذكر الأنبياء السابقين ناسب ذلك تكرار الإيتاء لهم .بخلاف آل عمران فإنها ليست في مثل هذا السياق.

ومنها :إن هذه الآية وردت في البقرة بعد قوله تعالى" :وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ" "البقرة "135 :فلما جرى ذكر هاتين الملتين ناسب ذلك تخصيص نبييهما بالإيتاء، فأفرد ذكر إيتاء موسى وعيسى عن إيتاء الأنبياء الآخرين، ثم جاء بعدهما ذكر الإيتاء للأنبياء الآخرين.

ومن ناحية أخرى إن الآية في آل عمران وردت بعد ذكر أخذ الميثاق من النبيين على الإيمان بسيدنا محمد ونصره إن هم أدكوره قال تعالى" :وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين" "آل عمران. "81 :

كما وردت في سياق التأكيد على الإسلام والإيمان به فقد قال قبلها" :أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" "آل عمران : . "83 وقال بعدها" :وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين" "آل عمران "85 :فناسب ذلك عدم تكرار الإيتاء للأنبياء فيها، وذلك لأن السياق فيما أوتي سيدنا محمد لا فيما أوتي الأنبياء الآخرون.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في البقرة في ذكر الأنبياء ذكر الإيتاء لهم، ولما كان السياق في آل عمران في الإيمان بمحمد ودينه وأخذ الميثاق من الأنبياء على الإيمان به ناسب عدم تكرار الإيتاء للأنبياء.

هذا ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري للبقرة يقتضي تكرر الإيتاء فيها دون آل عمران، وذلك أن مشتقات الإيتاء من نحو آتى وآتينا وأوتي وغيرها وردت في سورة البقرة أكثر مما في آل عمران، فقد وردت في البقرة في أربعة وثلاثين موضعاً، ووردت في آل عمران في تسعة عشر موضعاً، فاقتضى الجو التعبيري في البقرة تكرار لفظ الإيتاء فيها علاوة على ما ذكرنا بخلاف آل عمران .وقد رأينا في مواضع عدة كيف يراعي القرآن الكريم الجو التعبيري لذكر لفظ في موضع دون آخر.

وأظنك في غِنى عن بيان جلالة هذا التعبير وقدره.

ومن ذلك قوله تعالى" :كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى" "الرعد2 :، الزمر. "5 :

وقوله" :كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى" "لقمان. "29 :....فقد جاء في آية الرعد باللام" لأجل وجاء في آية لقمان بـ" إلى" "إلى أجل مسمى "، والفرق بينهما أن ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى :كُلٌّ يجري لبلوغ الأجل أي كل يجري لهذه الغاية كما تقول : كلهم يجري لوصول الهدف وبلوغه .وأما ما جاء بـ" إلى "فهو يفيد الانتهاء.

جاء في درة التنزيل : للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان بقوله" :كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى" لقمان 29 :وما سواه إنما هو" يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى" "الرعد : 2، الزمر. "5 :

والجواب أن يقال :إنَّ معنى قوله" :يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى" "الرعد2 :، الزمر "5 :يجري لبلوغ أجل مسمى .وقوله" :يجري إلى أَجَلٍ" "لقمان "29 :معناه :لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقتِ جَريهِ المسمى له.

وإنما خص ما في سورة لقمان بـ" إلى "التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآليات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة .فقبلها" :مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ" "لقمان :

"28وبعدها" :ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ" "لقمان "33 :فكان المعنى :كل يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تكرر فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق هوقوله: "خَلَقَ السماوات والأرض بالحق يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ العزيز الغفار * خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" "الزمر. "6-5 :

فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول" :وَمَا يَسْتَوِي البحران "إلى قوله" :وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ" "فاطر : "13-12فاختص ما عند ذِكْرِ النهاية بحرفها - واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها."

ومن لطيف ذلك قوله تعالى:" إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً" "الإنسان. "6-5 :

فقال أولاً" :يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ" "الإنسان "5 :بـ" من "وقال بعدها" :عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا" "الإنسان "6 :بالباء .وقد ذهب قسم من النحاة إلى أن الباء ههنا تفيد التبعيض بمعنى" من "أي :يشرب منها .وقيل :بل ضَمَّنَ شرب معنى" روي "أي :يرتوي بها وهو أولى.

وفيها معنى آخر :وذلك أن قوله" :يَشْرَبُ بِهَا" "الإنسان "6 :يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها من قولك" :نزلت بالمكان "فهو يدل على القرب والشرب، فالتمتع حاصل بلذتي النظر والشراب بخلاف الأول.
جاء في" البرهان "أن" العين ههنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء نفسه، نحو" :نزلت بعين "فصار كقوله :مكاناً يشرب به."
قالوا :وذلك أنه ذكر صنفين من السعداء:
الصنف الأول :هم الأبرار.
والصنف الآخلا هم الذي سماهم" عِبَادُ الله" "الإنسان "6 :وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم
وذلك أن القرآن يستعمل كلمة" عبد "على معنيين:
المعنى الأول :العبودية القسرية وهي التي يشترك فيها كل الخلق كافرهم ومؤمنهم وذلك نحو قوله تعالى" :إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمان عَبْداً * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً" "مريم "94-93 :وهذه العبودية ليس فيها فضل لأحد على أحد.
والمعنى الثاني :العبودية الاختيارية وهي أن يجعل الشخص نفسه عبداً خالصاً لله موطّناً نفسه على عبادته متحرياً مرضاته ساعياً في طاعته واضعاً نفسه ووقته في خدمة مولاه شأن المولى مع سيده في أقل تقدير .ويتفاضل الناس بمقدار هذه العبودية، فكلما كان الشخص أكمل في عبوديته هذه وأتم كان أقرب إلى سيده .وتطلق هذه الصفة أعني صفة العبودية على أعلى الخلق وهم الأنبياء في مقام التشريف قال تعالى" :وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً" "الجن "19 :وقال" :سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا" "الإسراء "1 :وقال" :ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً" "الإسراء. "3 :
من هنا يتبين أن مرتبة الذين سماهم" عِبَادُ الله" "الإنسان "6 :أعلى من الأبرار .وقد فرق بين النعيمين كما فرق بين الصنفين .فقد قال في الأبرار" :إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً" "الإنسان "5 :وقال في الآخرين" :عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً" "الإنسان . "6 :وأنت ترى الفرق واضحاً بين النعيمين .فقد قال في الأبرار:
١-إنهم يشربون من كأس.
٢- وذكر أن هذه الكأس ليس خالصة بل ممتزجة" كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً" "الإنسان. "5 :
واما الصنف الآخر فهم لا يشربون من كأس يؤتى بها بل يشربون خالصة من العين وهي مرتبة أعلى .ثم قال" :يَشْرَبُ بِهَا" "الإنسان "6 :ولم يقل" يشرب منها "أي : يرتوون بها، هذا علاوة على التمتع بلذبة النظر وهم نازلون بالعين.

وهذا التعبير نظير قوله تعالى" :كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ *كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ المقربون * إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون" "المطففين-18 : 28" .

فذكر الصنفين من السعداء :صنف الأبرار وصنف السابقين المقربين وهم أعلى الخلق .فانظر كيف قال في نعيم الأبرار" :يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ... وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ" "المطففين "27-25 :أي :إنهم يُسقون من رحيق ممزوج بالتسنيم، والتسنيم أعلى شرب في الجنة وهو يُمزج لهم بحسب أعمالهم .في حين قال" :عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون" "المطففين "28 :أي :إن المقربين يشربون من عين التسنيم خالصة، فإنهم كما أخلصوا أنفسهم وأعمالهم لله أخلص لهم الشراب، والجزاء من جنس العمل .وهم لا يشربون منها بل يشربون بها .فهذا - كما ترى - نظير ما مر في سورة الإنسان.

ويجرنا هذا التعبير إلى التشابه والاختلاف في التعبير عن الجزاء، إذ هو مرتبط بما نحن فيه ارتباطاً وثيقاً .فهو يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً عجيباً في التعبير عن كل صنف، فمن ذلك ما جاء في سورة الرحمن في وصف نوعين من الجنان قال:

"وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ *فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجنتين دَانٍ* فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" "الرحمن. "61-46 :

ثم قال:" وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ *فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" "الرحمن. "77-62 :

فأنت ترى أنه ذكر نوعين من الجنان بعضهما أعلى من بعض، فذكر الجنان العليا أولاً ثم قال" :ومن دونهما جنتان "أي :أقل منزلة منهما .وإليك طرفاً من التفريق بين الصنفين:

١- قال وصف الجنتين العُلْيين :إنهما" ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ" "الرحمن "48 :في حين قال في الأخريين" :مُدْهَآمَّتَانِ" "الرحمن "64 :أي :مائلتان للسواد من شدة الخضرة .والوصف الأول أعلى فإن الأفنان تطلق على ضروب عدة من النعم لا يفيدها قوله" :مُدْهَآمَّتَانِ" "الرحمن. "64 :

٢- وقال في العُلْيين" :فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ" "الرحمن "50 :وقال في الأخريين" :فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ" "الرحمن . "66 :وماء الجري أكثر من ماء النضخ .وقيل في الجري معان أخرى من صفات النعم لا يفيدها قوله نضاختان.

٣-وقال في العُلْيين" :فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ" "الرحمن "52 :وقال في الأخريين" :فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" "الرحمن . "68 :فانظر أين فاكهة الثانيتين من الأوليين؟ فقد ذكر أن في العليين .من كل فاكهة زوجين على سبيل الاستغراق والعموم، ولم يجعل الوصف كذلك في الأخريين.

٤-وقال في العُلْيين" :مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ" "الرحمن . "54 :وقال في الأخريين" :مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ" "الرحمن. "76 :

فقد ذكر بطائن الأولى فقال :إنها من استبرق ولم يذكر ظهائرها لِعُلُوِّها وللإشارة إلى أن الوصف لا يرقى إليها .قال في" الكشاف" : "وإذا كانت البطائن من إستبرق فما ظنك بالظهائر؟."

في حين ذكر الأخرى فقال :هي رفرف خضر وعبقري حسان .وانظر أين هذا من ذاك؟

٥-وقال في العُلْيين" :فيهن قاصرت الطرف "في حين قال في الأخريين" :حور مقصورات في الخيام. "

فانظر هداك الله وصف" القاصرات "بصيغة اسم الفاعل

ووصف" المقصورات "بصيغة اسم المفعول ووزان بين الوصفين يتبين الفضل بين الصنفين.

٦- وقال في صوف قاصرات الطرف" :كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان" "الرحمن "58 :ولم يقل مثل ذلك في المقصورات، وهذا الوصف مدعاة إلى التشويق لإحسان العمل و" هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان" "الرحمن "60 :؟

وانظر إلى دقيقة أخرى عجيبة في وصف هاتين الجنتين ذكرها السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهي أن قوله تعالى" :فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" "الرحمن "61 :تكرر في كل جنة ثماني مرات بعدد أبواب الجنة .وتكرر في جهنم بعد قوله تعالى" :سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان" "الرحمن "31 :سبع مرات بعدد أبواب النار فإن أبواب الجنة ثمانية كما أخبر

به الصادق المصدوق، وإن أبواب النار سبعة كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز" :لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ" "الحجر. "44 :
فانظر هداك الله مقام هذا الكلام ورفعته وعزته.
ونظير هذا التفريق في الجزاء ما جاء في سورة الواقعة في التفريق بين نعيم السابقين المقربين وهم أعلى الخلق ونعيم أصحاب اليمين.
قال تعالى في السابقين:
"والسابقون السابقون * أولائك المقربون * فِي جَنَّاتِ النعيم * ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين * على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون * جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً" "الواقعة : 10-26" .
وقال في أصحاب اليمين:
"وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ اليمين" "الواقعة-27 : 38" .
فانظر كيف فرق بين النعيمين:
١- ذكر أن السابقين على سُرُرٍ موضونة وهي المشبكة بالذهب، متكئين عليها متقابلين، ولم يذكر مثل ذلك في أصحاب اليمين بل قال" :وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ" "الواقعة : 34"وأنت ترى الفرق واضحاً بين الحالتين .وقيل :إنَّ المراد بالفرش ههنا النساء.
٢-وذكر أن السابقين يطوف علبيه ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين .ولم يذكر نحو ذلك في أصحاب اليمين .بل قال" :وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ" "الواقعة "31 :والفرق ظاهر.
٣- وذكر نعيم السابقين فقال" :وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ" "الواقعة: 20-21"في حين قال في أصحاب اليمين" :فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ" "الواقعة "29-28 :إلى أن قال" :وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ" "الواقعة . "33-32 :فأين السدر المخضود والطلح المنضود من قوله" :وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ" "الواقعة "21-20 :؟

٤-وذكر أزواج السابقين من الحور العين فقال" :وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون" "الواقعة "23-22 :ولم يصرح بمثل ذلك لأصحاب اليمين بل قال" :إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ اليمين" "الواقعة-35 : 38" وهذا نظير وصفهن في آيات الرحمن" :كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان" "الرحمن : 58"....ويقال ههنا ما قيل ثَمَّ.

ونكتفي بهذا القدر لبيان التشابه والاختلاف وإن كان يحتمل المزيد من الكلام والأمثلة. لقد تبين مما مر أن القرآن يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً، وبضعها وضعاً فيناً عجيباً .وأن التشابه والاختلاف في قسم من التعبيرات إنما يقتضيه المعنى والمقام .وأنه لم يترك وجهاً من وجوه الاقتضاء إلا راعاه، ليس في سياق الآية وحدها ولا في جو السورة وحدها، بل في عموم القرآن" .فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ" "الطور. "34 :

•

المبحث السادس

الفواصل القرآنية من حيث المعنى:

لا يراد بالفاصلة القرآنية مراعاة الحروف وإنما يراد المعنى قبل ذلك ويلتقي الحرف بالمشابهة اللفظية مع المعنى .وأحياناً لا يراعي القرآن الكريم الفاصلة بل قد تأتي مغايرة عن غيرها وهذا دليل على أن المقصود بالدرجة الأولى هو المعنى.

في سورة طه مثلا :تأتي الآية" فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ"78" مغايرة للفاصلة القرآنية في باقي آيات السورة" تزكى، يخشى، هدى "لأن المقصود الأول هو المعنى .وكذلك في سورة الأنبياء الآية" قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ " "66" مغايرة لباقي آيات السورة" يشهدون، ينطقون، تعقلون "وليس لها ارتباط بما قبلها وبعدها.

ومثال آخر في سورة الإنشقاق الآية" إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ " "14" فلو قال" يحورا " لتغيّر المعنى وفي هذا دلالة على أن القرآن يراعي المعنى قبل مراعاة الناحية اللفظية.

في أول سورة الأحزاب" وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً "3" مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ "4" ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً " "5" جاءت كلمة" السبيل " في آخر الآية 4 بينما جاء ما قبلها وبعدها بالألف، وفي أواخر سورة الأحزاب" يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا "66" وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا " "67" جاءت كلمة السبيلا بالألف، والكلام في هذه الآيات عن هؤلاء في النار ويمدون أصواتهم في النار و" الرسولا "بالألف هو صوت الباكي أما في أول السورة فليس هناك عذاب فجاءت على حالها" السبيل " وليست السبيلا، تصور الحالة الطبيعية من اصطراخ فجاءت الألف تعبيراً عن حالهم وهم يصطرخون في النار في كلمة" الرسولا "في أواخر السورة.

مثال آخر:

"وتظنون بالله الظنونا "تسمى الألف في النحو" ألف الإطلاق "كلمة ظنون إذا انتهت بساكن يسمى مقيّد .الظنونا كثير ومتشعبة واختلفوا وتشابكوا فاختلفت الظنون ولذا

جاءت بالإطلاق" الظنونا "وجب استخدام الألف لإطلاق الظنون.
مثال آخر:
في سورة الحاقّة" فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ " "19" من الناحية اللغوية هناك قاعدة التي فيها ياء المتكلم يجوز فيها الفتح والسكون" كتابي وكتابيه "من سكّن الياء يقول" كتابي "ومن فتح الياء يقول" كتابيه. "
الفاصلة القرآنية من حيث المعنى" ماليه، حسابيه، كتابيه، سلطانيه "لماذا جاءت الهاء؟ هذا الكلام يقال في يوم الحشر وهو يوم ثقيل كما أخبرنا سبحانه وتعالى ووصفه بيوم عسير وأنه عبوس قمطرير والناس في ذلك اليوم يبقون خمسين ألف سنة في هذه الشدة حتى يفزعون إلى الأنبياء .والهاء أشبه بالنهاة" المتعبين "تصور المشهد الذي هم فيه جميعاً من تعب وعناء فاختارها سبحانه لمراعاة الموقف الذي هم فيه كما اختار الألف في البكاء سابقاً .إذن استخدام حرف الهاء في فواصل هذه السورة يدل على التعب والعناء والألم والهاء مأخوذة من الآه.
الفاصلة القرآنية من حيث المحور النفسي :قال تعالى" وأضل فرعون قومه وما هدى " سورة طه .قال النحاة أنها جاءت مراعاة للفاصلة، ولكن كان من الممكن قول" وما هداهم "لكن فرعون أضلّ قومه لأنه غيّبهم في البحر إذن هو أضلهم وما هداهم" .وما هداهم "تحتمل أن يكون قد هدى غيره قومه أما" ما هدى "ففيه إطلاق نفي الهداية بمعنى أنه لم يهدي قومه ولا غيرهم ولم يكن أبداً سبباً في هداية أحد .ولذا جاء اختيار الكلمة المناسبة للآية بدون مراعاة الفاصلة في باقي آيات السورة لأن المعنى أهم ويُقدّم على الفاصلة.
مثال آخر في سورة الضحى:" ما ودّعك ربك وما قلى "نفى تعالى في هذه الآية شيئين : نفي التوديع وهو لا يكون إلا بين الأحباب والأصحاب، ونفى القلى الذي لا يكون إلا للمتباغضين .وقد يسأل البعض لم لم يقل تعالى" وما قلاك "كما قال" ما ودعك " والحقيقة أنه في الأمر المحبوب نفى الله تعالى بقوله" ما ودعك "باستخدام ضمير المخاطب لأنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفيه تكريم له بذكر حرف المخاطب أما في قوله" وما قلى "فلا يصح استخدام" قلى "بين المحبين وقد كرّم تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - عن أن يكون من المبغوضين فلم يقل" وما قلاك "حتى لا يكون الخطاب مباشرة للرسول - صلى الله عليه وسلم - من ربه الذي يحبه ولا يقليه واستخدام فعل قلى لا يليق أن ينسب للرسول - صلى الله عليه وسلم .- فجاء التكريم في هذه الآية من الله تعالى لرسوله في ذكر المفعول به بـ" ما ودعك "وتكريم بعدم ذكره بـ "ما قلى "فكرّمه بالذكر وبالحذف.

كذلك في سورة المدثّر لا يمكن أن تكون الفاصلة منفصلة عن المعنى فلو اقتضى المعنى ترك الفاصلة تركها فالمعنى يأتي أولاً في عموم القرآن وتلتقي الفاصلة مع المعنى.

وقد تكون الفاصلة والمعنى غير منتهي .ليست الفواصل هي دائماً تامة المعنى فقد تكون متعلقة بما قبلها أوما بعدها .كما في قوله تعالى في سورة العلق" أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلّى "وقال تعالى في سورة الرحمن" مدهامّتان "الآيات ليست وحدات مستقلة المعنى قد تكون تامة وقد تكون متعلقة بما قبلها أو بعدها.

في سورة طه الآية" فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى " "70" وفي سورة الشعراء الآية" رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ " "48" لماذا التقديم والتأخير وهل هو للفاصلة القرآنية؟

تكرر ذكر هارون كثيراً في سورة طه" أربع مرات "، والخطاب موجه إلى موسى وهارون دائماً إذن القصة في سورة طه مبنية على الثنائية، وفي سورة طه أيضاً أدرك موسى الضعف البشري كما أدرك أبو البشر آدم - عليه السلام" - فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى " "67" ولم يذكر الخيفة لهارون أما في سورة الشعراء فقد ورد ذكر هارون مرتين فقط والخطاب في السورة كان موجهاً إلى موسى وحده في كل السورة فهي مبنية على الوحدة في الغالب وقد أورد تعالى في سورة الشعراء عناصر القوة في موسى ولم يذكر عناصر الضعف ولهذا السبب اختلف السياق واقتضى التقديم والتأخير كما جاء في آيات كل من السورتين .وهناك أمر آخر في سورة طه" طه "فيها حرف من حروف هارون وليس فيها حرف من حروف موسى" وكل سورة تبدأ بالطاء تحوي قصة موسى - عليه السلام "- أما سورة الشعراء" طسم "ففيها حرفين من حروف موسى وليس فيها حرف من حروف هارون.

المبحث السابع

التوسّع في المعنى في الصيغ المشتركة:...

في العربية أحياناً الصيغة الواحدة يجتمع بها أكثر من معنى مثل صيغة فعيل على سبيل المثال فهي قد تكون للمبالغة مثل" سميع "أو صفة مشبّهة مثل" طويل أو قصير "أو اسم مفعول مثل" قتيل أو أسير "إذن هذه الصيغة تحتمل عدة معاني .ومعروف في اللغة أن اسم المفعول من غير الثلاثي يشترك فيه المصدر واسم المكان واسم الزمان واسم المفعول وأحياناً يشترك فيه اسم الفاعل .مثال كلمة مختار، هل هي اسم اعل؟ لا نعلم ما هي فقد تحتمل أن تكون مصدر بمعنى اختيار أو مكان الإختيار أو زمانه أو اسم فاعل أو اسم مفعول .فإذا قلنا" هذا مختارنا "يحتمل أن يكون هو الذي اخترناه أو اختيارنا أو زمان اختيارنا أو مكان اختيارنا .فالصيغة إذن تكون أحياناً مشتركة فإذا أردنا معاني الصيغ يكون توسع في المعنى وليس هناك قرينة.

١- مثال من القرآن الكريم في سورة القيامة قوله تعالى" إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ "12" . "ما المقصود بالمستقر؟ هل هو بمعنى إلى ربك الإستقرار أو إلى مشيئته الإستقرار أي لا يستقرون إلى غيره أو هو موضع الإستقرار وهو الجنة أو النار فالله وحده هو الذي يحكم بين العباد، أو هو زمان الإستقرار بمعنى يبقون ما يشاء الله في المحشر ثم يأمر الله تعالى بالقضاء بينهم؟ والمقصود من هذه الآية كل المعاني المحتملة فالإستقرار إليه ومكان وزمان الإستقرار إليه فإليه المستقر إذن هي جمعت ثلاثة معاني :المصدر واسم المكان واسم الزمان وهي كلها مرادة مطلوبة وليس هناك قرينة تصرف إلى أحد هذه المعاني فأصبحت إذن من باب التوسّع في المعنى.

٢- مثال آخر :ما المقصود بكلمة" حكيم "في قوله تعالى في سورة يس" يس والقرآن الحكيم "وقوله تعالى" ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم "؟ يحتمل أن تكون بمعنى محكم" اسم مفعول "كما في قوله تعالى" كتاب أُحكمت آياته" "ومنه آيات محكمات "فهو محكم، وقد يكون مبالغة في الحكم لأنه حاكم على غيره ومهيمن على غيره من الكتب والأحكام" مصدقاً لمل بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه "أو هو صفة مشبّهة من الحكمة فهو ينطق بالحكم ويأتي بها .كل هذه المعاني مُرادة ولم يأتي بقرينة تصرف إلى معنى من هذه المعاني وهذا ما يُسمى التوسع في المعنى.

٣- مثال آخر قوله تعالى" إن إبراهيم كان أمّة . "ما المقصود بكلمة" أمّة "؟ في اللغة لها احتمالان والمشهور هو أنها الجيل من الناس ولها عنى آخر فهي على وزن فُعلة من أمّ يؤمّ .والفُعلة هكذا هي اسم مفعول له أوزان كثيرة نقول هو سُبّة إذا كان يُسبّ كثيراً أو صُرعة إذا كان يُصرع كثيراً ولُعنة الذي يُلعن كثيراً وضُحكة هو الذي يضحك منه

الناس ويُهزأ به .وكذلك لدينا فُعَلَة وهي صيغة مبالغة مثل حُطَمَة وهي اسم فاعل فنقول هو صُرَعة أي الذي يَصرع كثيراً، وهُمَزة الذي يسخر من الناس وضُحَكة هو الذي يضحك من الناس، فما المقصود بأمة في هذه الآية؟ والمقصود أن إبراهيم - عليه السلام - كان عنده من الخير ما عند أمّة أو جيل من الناس وهو أيضاً إمامهم وأمّة من معانيها إمام ومأموم وقد قال تعالى في آية أخرى" إني جاعلك للناس إماما "إذن أمّة في هذه الآية فيها احتمالين أن عنده من الخير ما عند جيل من الناس وهو يؤمّ الناس وإمام لهم ولو قال إمام لنصّ على معنى واحد دون الآخر لكن اختيار كلمة" أمّة "تدل أن المقصود والمُراد هو المعنيين لهذه الكلمة فصار هذا اتساعاً في المعنى.

٤- مثال آخر قوله تعالى في سورة البقرة" ولا يُضارّ كاتب ولا شهيد "ونسأل كلمة "ضارّ "هل هي مبني للفاعل او المفعول؟ نقول هي تحتمل الإثنين ولو أراد التنصيص لفكّ الإدغام كما في قوله تعالى" ومن يشاقق الله ورسوله "وقوله" ومن يرتدد منكم عن دينه "بمعنى أنه لو أراد إسم الفاعل لقال" يُضارِر "ولو أراد إسم المفعول لقال "يُضارَر . "والله تعالى أراد الإثنين معاً ومعنى الآية أنه نهى الكاتب والشهيد أن يضُرّا غيرهما إما بكتم الشهادة أو الإمتناع عن الحضور لها أو تحريفها وأراد المعنى الآخر وهو نهى أن يقع الضرر على الكاتب والشهيد ممن يضغطون عليهم لتغيير الشهادة أو تبديلها أو الإمتناع عنها .إذن المطلوب منع الضرر من الكاتب والشهيد ومنعه عنهما أيضاً في نفس الآية وبدل أن يقول ولا يُضارَر ولا يُضارِر كاتب ولا شهيد جاء بالصيغة التي تحتمل المعنيين وهي كلمة" يُضارّ. "

٥-ومثل المثل السابق قوله تعالى" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . " "233" هل هي مبنية للفاعل أو المفعول؟ من المحتمل أن تضر الزوجة زوجها بزلدها ومن المحتمل أن يضُر الزوج زوجته بولده فأراد تعالى المعنيين لكيلا يقع الضرر من أحدهما على الآخر فجاء بصيغة تدل على المعنيين وهذا من باب التوسع في المعنى .ولقد تفرّد القرآن الكريم باختيار التعبير الأعلى في المعنى المُراد وفي المكان الذي يقتضيه هذا المعنى ومن هنا إعجازه الذي تحدّى به العرب أهل اللغة والفصاحة فعجزوا عن الإتيان ولو بسورة واحدة من مثله.

التوسّع في المعنى في الجمع بين الألفاظ والصيغ المشتركة ذات الدلالات المختلفة:

من مواطن التوسّع في القرآن الكريم الجمع بين الألفاظ والصيغ ذات الدلالات المختلفة. ونأخذ مثال من غير القرآن أولاً لو قلنا أعطيته عطاءً حسناً .فعل أعطى مصدره الإعطاء وليس العطاء كصيغة أفعل افعال مثل أكرم إكرام لو قلنا أعطيته إعطاءً لكان واضحاً لأن مصدر الفعل أعطى إعطاءً أما العطاء فهو اسم المصدر بمعنى الإعطاء أو المال والعطاء يحتمل معنيين إعطاء حسن ومال حسن أما قولنا أعطيته إعطاء لدلّ المعنى على المصدر فقط أي الإعطاء الحسن فقط.

١-ونأخذ مثالاً من القرآن قوله تعالى" من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً "الفعل أقرض مصدره إقراضاً والفعل الثلاثي قرَض مصدره قرضاً .فجاء بالفعل الرباعي "يقرض "ولم يأت بمصدره إنما جاء بمصدر الفعل الثلاثي" قرضاً . "ولو رجعنا إلى معنى القرض في اللغة فهو يعني المال والإقراض إذن القرض في الآية تحتمل المعنيين، فلو كان القصد الإقراض لكان إعرابها مفعول مطلق، ولو كان المقصود المال لكان إعرابها مفعول به .والمعنى المُراد من الآية الكريمة" من ذا الذي يقرض الله إقراضاً حسناً أي خالص النية لله محتسباً الأجر من الله، ومالاً حسناً أي طيباً حلالاً " فهناك إذن إقراض حسن ومال حسن ولما قال تعالى قرضاً حسناً جمع بين الأمرين معاً إقراضاً حسناً ومالاً حلالاً طيباً.

٢- مثال آخر في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة النساء" يريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيدا : "أضلّ يُضلّ مصدره الإضلال والضلال مصدر فعل ضلّ .وقد جاء في آية أخرى أيضاً" فقد ضلّ ضلالاً بعيدا "، وقد جاء بالفعل من بناء ولم يأتي بمصدره وإنما جاء بمصدر الفعل الثلاثي" ضلّ "نسأل لماذا؟ لأن الشيطان يريد أن يبدأ مرحلة أن يضل الإنسان ولكن لا يريد أن يتابع وإنما يريد الإنسان أن يتم ويكمل المرحلة فيبتدع من وسائل الضلال ما لا يعلمه الشيطان .لو جاء في الآية إضلال لكان هذا كله من الشيطان وحده ولا يتابع فالشيطان يضع الإنسان على طريق الضلال ويذهب إلى مكان آخر أما إذا جاء بكلمة ضلال فهي تعني أن الشيطان فهو يبدأه ويكمله الإنسان فأراد سبحانه المعنيين أن الشيطان يبدأ بالضلال والإنسان يُكمل ما بدأه الشيطان ويبتدع من طرق الضلال ما يبتدع .إذن معنى الإضلال هو من الشيطان وحده أما الضلال فالشيطان يبدأ والإنسان يُكمل الطريق فالشيطان والإنسان مشتركين في عملية الضلال.

٣-ومثال آخر في قوله تعالى" وتبتّل إليه تبتيلا "القياس أن يقال تبتّل تبتّلاً أنما في الآية جاء بالفعل ولم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر ليجمع بين أمرين" .صيغة تفعّل تفيد التدرج مثل تجرّع الماء أي جرعة جرعة وتحسّر فيها التدرج والتكلف "

ومثلها تجسّس وتحسّس وكسر وكسّر أي جعله كسرة كسرة وقطع وقطّع تفيد التكثير لأن صيغة فعّل تفيد التكثير .فهو الآن في قوله تعالى" وتبتّل إليه تبتيلا "جمع بين المعنيين التدرج والتكلف والمبالغة والتكثير ووضعهما وضعاً تربوياً عجيباً يبدأ بالتدرج ثم ينتهي بالتكثير فالتبتّل هو الإنقطاع إلى الله في العبادة وقد علّمنا تعالى أن نبدأ بالتدرج في العبادة شيئاً فشيئاً ثم ندخل في التكثير ولا ندخل في العبادة الكثيرة مباشرة لأن التدرج في العبادة يؤدي إلى الكثرة فيها فيما بعد وهذه هي الطريقة التربوية للعبادة تبدأ بالتدرج وتحمل نفسك على العبادة شيئاً فشيئاً ثم تنتهي بالتكثير والكثرة في العبادة . والتدرج والتكلف جاء بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد" تبتّل "ثم جاء بالصيغة الإسمية الدالة على الثبوت" تبتيلا "فبدل أن يقول تبتّل إليه تبتّلاً وبتّل نفسك إليه تبتيلا وهذه صياغة فنية تربوية عجيبة وقد جمع في الآية عدة أمور بيانية في التعبير .والعرب قديماً كانوا يفهمون هذه البلاغة بالفطرة لكنهم عجزوا عن الإتيان بالصيغة التي جاء بها القرآن الكريم وهذا هو التحدي والإعجاز في القرآن

٤-مثال آخر قوله تعالى" مالك الملك "هو مالك من التملّك ومن المِلك" الملكية "والمُلك من الحكم .مع فرعون قال تعالى" أليس لي ملك مصر "بمعنى له الحكم وليس له المِلك. أما لله تعالى مالك الملك تعني أن الملك ملكه وهو يملكه ملكاً كما يملك المالك، فالمُلك هو مِلك الله تعالى يتصرف به تصرّف المالك لأنه ملكه وحده سبحانه فإذن جمع تعالى بين الملكية وبين الحكم .والمالك يتصرف في ملكه ما لا يتصرف فيه المِلك لأن المِلك له تصرف عام آخر أما المالك فله تصرف خاص .وقوله تعالى" مالك الملك "جمع الأمرين الملكية والتحكم كما نقرأ في سورة الفاتحة" ملك يوم الدين "في قراءة و" مالك يوم الدين "في قراءة أخرى.

٥-وأنبتها نباتاً حسناً "في الثناء على مريم قال تعالى وأنبتها نباتاً حسناً ولم يقل إنباتاً حسناً لأنه تعالى أراد أن يُثني عليها وعلى معدنها الكريم .يقال أنبت إنباتاً ومريم عليها السلام أنبتها تعالى فنبتت نباتاً حسناً فطاوعت وقبلت أي أن لها فضل في هذا ولو قال تعالى إنباتاً لكان كله عملية لله وحده وليس لمريم أي فضل بمعنى أنه تعالى أنبتها كما يشاء هو لكن الله تعالى أراد أن يثني على مريم ويجعل لها فضلاً في هذا الإنبات فقال تعالى" وأنبتها نباتاً حسناً "أي أنه تعالى أنبتها فنبتت نباتاً حسناً وطاوعت أمر ربها وقبلت وكان من معدنها ما جعلها تنبت نباتاً حسناً .وقد أراد تعالى أن يجمع بين الأمرين أنه تعالى أنبتها كما يشاء وأراد من باب الثناء أن يجعل لها فضلاً في هذا من طيب معدنها وطواعيتها فقال" وأنبتها نباتاً حسناً. "

من مواطن التوسع فى المعنى :العدول من تعبير إلى تعبير:

هذا في القرآن الكريم كثير وهو ترك تعبير إلى تعبير آخر ويحتمل أكثر من وجه إعرابي وأكثر من معنى .كما في قوله تعالى" ولا تشركوا به شيئا "فما المقصود بـ "شيئا "؟ هل هو شيء من الأشياء مما يُشرك الناس به من أوثان وغيرها وعنده يُعرب مفعول به أو لا تشركوا به شيئاً من الشرك لأن الشرك أنواع الشرك الأصغر والشرك الأكبر وتعرب حينها مفعول مطلق، فما المقصود؟ كلمة" شيئا "تحتمل المعنيين أي لا تشركوا بالله شيئاً من الأشياء ولا شيئاً من الشرك فنهانا سبحانه عن الشرك به شيئاً من الأشياء أو شيئاً من الشرك لأن هناك من أنواع الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل .

والمفعول المطلق المصدر ينوب عنه أشياء كثيرة فقد تنوب عنه صفته والضمير والمصدر" .شيئاً "أحياناً الإسم العادي المادي نفسه مثال لما نقول طعنه سكيناً عند النحاة هو مفعول مطلق بمعنى طعنه بسكين فالمفعول المطلق" سكينا "ينوب عن المصدر وهو الآلة.

وكذلك قوله تعالى" ولا تظلمون فتيلا "الفتيل هو الخيط في شق النواة فهل المقصود شيئاً ماديا" مفعول به "أو شيئاً من الظلم وإن كان فتيلا؟ إذا أردنا المصدر تعرب مفعول مطلق بمعنى" ولا تظلمون شيئاً من الظلم وإن كان قليلاً "وهنا أراد تعالى الأمرين والمعنيين معاً بمعنى أنه لا يظلمنا لا قليلاً من الأشياء ولا شيئاً من الظلم وإن كان قليلا .ولو أراد تعالى التحديد والتخصيص بمعنى واحد لفعل كما في قوله تعالى "ولا يشرك بعبادة ربه أحدا "هنا حدد معنى واحداً أما عندما يريد أكثر من معنى ويريد التعميم يأتي بصيغة تحتمل عدة معاني وهذا ما يُسمى التوسع في المعنى في القرآن الكريم.

مثال آخر قوله تعالى" فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرا : "ما المقصود ضحكاً قليلاً أو وقتاً قليلاً؟ أو بكاء كثيراً أو وقتاً كثيراً؟ الآية تحتمل كل هذه المعاني أراد تعالى معنى المصدر والظرف في آن معاً هو أراد فليضحكوا ضحكاً قليلاً وقتاً قليلاً وليبكوا بكاء كثيراً وقتاً كثيراً ولو أراد معنى واحداً لحدد الظرف أو المصدر لكنه جمع بين الظرف والمصدرية في الآية الواحدة .والإعراب يختلف هنا لو أراد ضحكاً قليلاً تكون قليلاً مفعول مطلق ولو أراد وقتاً قليلاً لكانت ظرفاً وكذلك لو أراد بكاء كثيراً لكانت كثيراً مفعول مطلق ولو أراد وقتاً كثيراً لكانت ظرفاً إذن أراد تعالى أن يجمع بين الحدث القليل والزمن القليل" فليضحكوا قليلاً "والحدث الكثير والزمن الكثير" وليبكوا كثيراً . " ونلاحظ أنه في التقييد حكمة وفي التكثير حكمة أيضاً.

ومثال آخر قوله تعالى" بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا "هل المقصود قليل من الفقه أو

قليل من المسائل والأمور .الآية تحتمل المعنيين قليل من الفقه وقليل من المسائل ومثل هذه الآية قوله تعالى" وبصدّهم عن سبيل الله كثيرا "هل المقصود كثير من الصدّ أو كثير من الخلق أو كثير من الوقت؟ الآية تحتمل كل هذه المعاني والسياق هو الذي يحدد كيف نتناول هذه الآيات وهو الذي يحدد المراد من الآية.

ومثال آخر قوله تعالى" وادعوه خوفاً وطمعا "يحتمل أن يكون مفعول لأجله أو حال بمعنى خائفين طامعين ويمكن أن يكون مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره ندعوه خائفين وندعوه ونحن نخاف خوفاً وندعوه من أجل الطمع أي ينبغي أن يكون الطمع دافع لنا، وفي حالة طمع" حال "ونحن نطمع طمعاً" مفعول مطلق "للطمع وطامعين وحال طمع فجمعها سبحانه في الآية" وادعوه خوفاً وطمعا "والتعابير كلها مرادة.

وقوله تعالى" إليه يصعد الكلِم الطيب والعمل الصالح يرفعه : "ما المقصود؟ تحتمل خياران الأول :العملَ الصالح والثاني العملُ الصالح .فلماذا اختار العملُ الصالح يرفعه؟ ولم يقل العملَ الصالح؟ نفهم الآية أولاً قوله تعالى" والعملُ الصالح يرفعه "جملة إسمية من الذي يرفع؟ هو مرفوع يرفعه الله تعالى؟ هل هو يرفع الكلم الطيب إلى الله تعالى؟ يحتمل المعنيين في هذا التعبير ويكون لدينا معنيين مقبولين :العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب عند الله صاعداً إليه والله تعالى هو الذي يرفع العمل الصالح .ولو قال تعالى" والعملَ الصالح يرفعه "لا يمكن إلا أن يكون لها معنى واحداً هو أن الله تعالى يرفع العملَ الصالح "ولتحدد المعنى وهذا هو العدول من النصب إلى الرفع وهو عدول بياني لكسب معنيين وليس مصادفة أو اعتباطاً.

... *من مواطن التوسع في المعنى أيضاً الحذف:

الحذف يؤدي إلى إطلاق معنى المعنى وتوسعه وهو قسمان :قسم لا يؤدي إلى توسع في المعنى ولا إلى إطلاق لأن المحذوف يتعين فيتقدّر ذلك المحذوف" ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا "المحذوف أنزل وكذلك قوله تعالى" والحافظين فروجهم والحافظات " المحذوف كلمة فروجهن، وقوله تعالى" والذاكرين الله كثيراً والذاكرات "وقوله تعالى "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله "هذا الحذف هنا ليس فيه توسع ولا إطلاق في المعنى لأن المحذوف محدد ومعيّن.

وهناك قسم آخر من الحذف يؤدي إلى التوسع في المعنى وهذا يحتمل عدة تقديرات 2 أو 3 أو 4 أو 5 تقديرات قد يكون بعضها مراد وقد تكون كلها مرادة بقدر ما يحتمل السياق .وعلى سبيل المثال قوله تعالى" وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ " "44" قال تعالى على لسان أصحاب الجنة" ما وعدنا ربنا "

بالتخصيص لهم ولم يقل" ما وعدكم ربكم "مع أصحاب النار وذلك لأن الكافرين لا ينكرون فقط ما وعدهم ربهم لكنهم ينكرون ما وعدهم وما وعد غيرهم وكل ما يتعلق بالبعث والحساب والقيامة فهم ينكرون ما يتعلق بهم وبغيرهم فالسؤال لم يكن عن ما وعدهم ربهم فقط ولكن السؤال عن الوعد بصورته العامة لذا قال تعالى" ما وعد ربكم" ولو قال ما وعدكم لكان جزءاً من المعنى المُراد وليس كله فأهل قريش كانوا يؤمنون بالله لكنهم ينكرون الساعة والبعث .إذن الحذف هنا أدى إلى توسع في المعنى لأنه شمل ما وعدهم ووعد غيرهم والوعد العام بالحساب والبعث.

مثال آخر قوله تعالى" فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين" "ما "تحتمل أمرين تحتمل أن تكون مصدرية بمعنى فاصدع بأمرنا وتحتمل أن تكون اسم موصول فلو قال تعالى" فاصدع بما تؤمر به "لكان اسماً موصولاً قطعاً .فما المقصود؟ تحتمل أن تكون فاصدع بأمرنا وتحتمل أنو تكون فاصدع بالذي تؤمر به والأمران مرادان في الآية أن يصدع بأمره ويصدع بما أمره به ولو ذكر أحد الأمرين لتحدد المعنى بشيء واحد أو بقسم من المعنى، وهذا الحذف هنا يدل على التوسع في المعنى.

ونظير ذلك قوله تعالى" أنسجد لما تأمرنا "تحتمل معنى أنسجد لما تأمرنا به وأنسجد لكل ما تأمرنا به ولأمرك، فالحذف هنا أطلق المعنى ووسّعه .ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الضحى" ألم يجدك يتيماً فآوى "احتملت المعاني آواك وآوى بك خلقاً كثيراً وآوى لك ولأجلك من آوى.

مثال آخر من الحذف وقد يكون الحذف للتوسع في المعنى يعطي أكثر من احتمالين كما في قوله تعالى" ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق "هذه الآية غريبة في التوسع فيها لأن احتمالات الحذف فيه متعددة، محتمل أن يكون المحذوف حرف الباء" بأن يقولوا على الله "بمعنى ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب بهذا الأمر وهذا حذف قياسي .ومحتمل أن يكون

المحذوف حرف في" ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب في أن يقولوا على الله "ومحتمل أن يكون المحذوف حرف على" ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب على أن لا يقولوا على الله " وهذا من باب التوافق والتعاهد سيكون أشدّ توافقنا وتعاهدنا على هذا فأصبح اشتراطاً عليه، ومحتمل أن يكون المحذوف حرف اللام" لئلا يقولوا على الله "وهنا للتعليل فيمكن أن تكون كل هذه المعاني مرادة وكلها مرادة لأنه لو أراد سبحانه معنى منها لذكر أي حرف وحدد المعنى.

والتوسع في هذه الآية ليس بحذف حرف الجر فقط ولكن هناك توسع آخر هو في عدم الحذف أصلاً فيمكن أن لا يكون هناك حذف أصلاً، وهناك احتمال أن يكون هناك

احتمال حذف فلو سألنا ما هو ميثاق الكتاب؟ الجواب" :أن لا يقولوا على الله إلا الحق " وهذه الجملة قد تكون عطف بيان أو بدل وهناك احتمالان آخران" أن "يحتمل أن تكون مصدرية أو تفسيرية وكذلك هناك إحتمالان لـ" لا "تحتمل أن تكون نافية أو ناهية إذن هناك تسعة احتمالات في هذه الآية الواحدة إحتمال حذف حرف الجر" الباء، في، على، اللام "واحتمال عدم الحذف" عطف بيان أو بدل "واحتمال أن" تفسيرية أو مصدرية " واحتمال لا ناهية أو نافية، فهذه تسعة احتمالات لمعاني في آن واحد وهذا توسع عجيب في هذه الآية الكريمة وقد تكون كل هذه المعاني مُرادة ولو أراد معنى محدداً لجاء بما يدل عليه.

مثال آخر قوله تعالى" قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم "هل المقصود" بأن أكون أول من أسلم "بحذف الباء أو" لأن أكون أول من أسلم "بحذف اللام وقد استعمل القرآن الكريم الحالتين في آيات أخرى ولو أراد اللام تخصيصاً ونصاً لقالها لكنه تعالى أراد المعنيين وهما مرادان والحذف في هذه الآية يدل على المعنيين معاً.

وكذلك قوله تعالى" وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً . " "127"نذكر أن القاعدة في كتب النحو أنه إذا أدى الحذف إلى التباس في المعنى فلا يصح الحذف، لا يجوز الحذف مع فعل رغب أبداً لأن الحذف يؤدي إلى التباس في المعنى فإما أن يقال رغب فيه بمعنى أحبّه أو يرغب عنه بمعنى تركه وانصرف عنه هذا في اللغة أما في هذا الآية فالله تعالى أراد المعنيين معاً أراد معنى ترغبون في أن تنكحوهن لجمالهن وغناهن وترغبون عن أن تنكحوهن لدمامتهن وفقرهن وهكذا حذف الحرف ليدل على المعنيين ولو ذكر حرفاً لخصص المعنى وحدده، لكن المعنيين مرادين والحكم يتعلق بالأمرين معاً الذي يرغب في أن ينكحهن والذي يرغب عن أن ينكحهن.

الفعل الثاني .مثال على ذلك قوله تعالى فعل سمع يتعدّى بنفسه في الأصل فنقول سمع الصوت وقوله تعالى" يومئذ يسمعون الصيحة بالحق "، لكننا في الصلاة وبعد الرفع من الركوع نقول :سمع الله لمن حمد فعل سمع هنا عُدّي باللام لأن المقصود هو فعل استجاب فكأنما أخذنا اللام من فعل الإستجابة وعدّينا فعل سمع بهذه اللام لتعطي معنى الإستجابة وليس الإستماع فليس كل سماع إستجابة.

ومثل ذلك استخدام فعل نصر مع الحرف من كما في قوله تعالى" ونصرناه من القوم " في الأصل يقال" نصر على "لأن فعل نصر يتعدّى بـ" على "و" نجّى من "وفعل نجّى

يتعدّى بـ" من "، وقد استخدم القرآن هاتين الحالتين في مواطن كثيرة وفي آيات كثيرة "فانصرنا على القوم الكافرين "وقوله تعالى" فأنجاه الله من النار . "لكن في هذه الآية قال تعالى" ونصرناه من القوم "عدّى الفعل نصر بما يتعدّى به فعل نجّى أي بحرف "من "وذلك للدلالة على أن المعنى المطلوب هو معنى النصر والنجاة في آن معاً لأن الله تعالى نصره ونجّاه وعاقب القوم وحاسبهم وعذّبهم فجاء فعل نصر بمعنى نجّى فكسب معنى النصر والنجاة أما في حالة" فأنجاه الله من النار "جاء الفعل نجّى متعد بـ "من "لأن المعنى هو النجاة فقط ولا يمكن أن تعاقب النار ولا يُنتصر منها .إذن لقد عدّى فعل نصر بالحرف الذي عدّى فيه فعل نجّى وهذا يسمى التضمين وهو من مواطن التوسع في المعنى في القرآن الكريم.

مثال آخر قوله تعالى" عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً " "6" الأصل أن يقال يشرب منها .وهذه الآية فيها احتمالان :تحتمل أن يكون هناك تضمين بمعنى يرتوي بها "يشرب بمعنى يروى أو يشرب إلى أن يروى "وهذا هو الإحتمال الشائع عند المفسرين وقالوا هذا جزاء المقرّبين .لأنه لو أراد غير هذا المعنى لحدده كما قال في آية أخرى "إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً . " "5" في هذه الآية عدّى فعل يشرب بالباء ليحتمل معنى يرتوي وهناك إحتمال آخر أنهم نازلون بها كما يقال نزلنا في المكان وشربنا به فتصير إذن ظرفية .إذن تحتمل التعدية بالباء لفعل يشربون أن تكون بمعنى الشرب حتى الإرتواء ومعنى التمتع بلذّة النظر إلى العين والإستقرار عندها وهذه متعة أخرى.

المصادر والمراجع

-أسرار البيان في التعبير القرآني/فاضل صالح السامرائي
-ارشاد العقل السليم/ابو السعود
-اعراب القرآن وبيانه/محيي الدين درويش
-الايضاح/القزويني
-البحر المحيط/الاندلسي
-التفسير البيضاوي
-التفسير المنير/ وهبة الزحيلي
-الجدول في اعراب القرآن /محمود صافي
-الجواهر الحسان/الثعالبي
-خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغيّة/عبدالعظيم المطعني
-سحر البلاغة وسرّ البراعة/الثعالبي
-صفوة التفاسير/الصابوني
-الكشاف/الزمخشري
-المحرر الوجيز/ابن عطية
-محاضرات أ. د رياض عبود إهوين/ الجامعة المستنصرية / كلية الآداب تحت عنوان: مفهوم التعبير القرآني.

***للأمانة العلميّة: استفدنا في إعداد مادّتنا (التعبير القرآني) على (أسرار البيان في التعبير القرآني/د.فاضل صالح السامرائي) بالدرجة الاولى.....

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسّلام على سيّدنا محمّد صلاة تنجينا بها من جميع الاهوال والآفات، وتقضي بها جميع الحاجات، وتطهّرنا بها من جميع السيّئات، وترفعنا بها عندك اعلى الدّرجات وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا.

المحتويات

مدخل الى تعريف التعبير القرآني.....١-٣

المبحث الأول : البُنية في التعبير القرآني.....٤-١١

١- استعمال الفعل والاسم.....٤-٦

٢-الأبنية المتعددة.....٦-٨

٣-المفرد والجمع.....٨-١١

المبحث الثاني :التقديم والتأخير.....١٢-٢٧

أوّلا:تقديم اللفظ على عامله.....١٢-١٤

ثانياً :تقديم اللفظ وتأخيره على غير العامل.....١٤-٢٧

المبحث الثالث : الذكر والحذف.....٢٧-٣٢

المبحث الرابع : التذكير والتأنيث.....٣٢-٣٧

١-تذكير اللفظ المؤنث.....٣٢-٣٤

٢- التأنيث للكثرة والتذكير للقلة.....٣٤-٣٦

٣- التذكير والتأنيث على كلمة واحدة.....٣٦-٣٧

المبحث الرّابع:التوكيد.....٣٧-٤٠

١- -اللفظ المؤكد.....٣٧-٣٩

٢- اختصاص الحرف بالدلالة على التوكيد دون نظيره.....٣٩

٣- تكرار اللفظ الذي يريد توكيده.....٤٠

٤- تخفيف التوكيد.....٤٠

٥- زيادة التوكيد.....٤٠

المبحث الخامس:التشابه والاختلاف.....٤١-٧١

المبحث السادس:الفواصل القرآنية من حيث المعنى.....٧٢-٧٤

المبحث السابع:التوسع في المعنى في الصّيغ المشتركة.....٧٥-٨٣

المصادر والمراجع.....٨٤

المحتويات.....٨٥